رقم القسم _____
الرقم العام _____
الرقم الخاص _____

وقف دير السيدة العذراء بدموس
والذي يحرم بيعه تحت طائلة الحرمان الكنسي

مكتبة دير السيدة العذراء
بدموس

ايريناوس
٥

الطبعة الأولى ١٩٩٢

منشورات
المركز الرّعوي للأبحاث والدّراسات
الرئاسة العامّة للرهبانيّة الأنطونيّة المارونيّة
دير مار روكز- الدّكوانة- لبنان

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلّف
وللرهبانيّة الأنطونيّة المارونيّة

الأب جوّرج رحمه
الراهب الأنطوني

ايريناوس
أسقف مدينة ليون

موسوعة
"عظماء المسيحيّة في التاريخ"
٥

للمؤلف

في اللغة العربية:

١ ـ رسالة في فضيلة العفاف لايليّا النصّيبيني، مقدمة وتحقيق، مجلة المشرق، ١٩٦٧.
٢ ـ الجوّ الالهي لتيار دي شاردن، ترجمة بالاشتراك مع المطران عبده خليفه، بيروت ١٩٧١.
٣ ـ الارامية السريانية، لغة وتراث (اربع لغات: سرياني ـ عربي ـ فرنسي ـ انكليزي)، الجزء الاول من عشرة اجزاء، بيروت ١٩٨٠.
٤ ـ مع الله (نجاوى)، الجزء الاول من ستة اجزاء، بيروت ١٩٨١.
٥ ـ اغناطيوس الانطاكي، كليمنضوس الروماني، پوليكربوس الازميري: الكتاب الثاني من الموسوعة، ١٩٩٢.
٦ ـ يوستينوس الروماني، أثيناغورس الأثيني: الكتاب الثالث من الموسوعة، ١٩٩٢.
٧ ـ أوريجانوس الاسكندري: الكتاب العاشر من الموسوعة، ١٩٩٢.

في اللغة الفرنسية

1 – Le drame de l'humanisme athée ou le Pour–Autrui dans l'Etre et le Néant de Jean–Paul Sartre, Beyrouth 1978.
2 – Le problème du mal dans la pensée du père Teilhard de Chardin, Beyrouth 1979.
3 – Coordonnées de la Crise Libanaise, Centre de Documentation et de Recherches (CEDRE), Beyrouth 1979.
4 – Jawad Boulos: Philosophe de l'histoire, Beyrouth 1981.
5 – La Vision Cosmique et Mystique chez Teilhard de Chardin, Beyrouth 1982.
6 – Teilhard de Chardin: Mystique Savant. Publishing and Marketing House (CEDRE), Beyrouth 1984.

للطبع:

١ ـ الكاهن (رسالة جوابية من كاهن ماروني الى درزيٍّ موحِّد).
٢ ـ الراهب والسياسة
٣ ـ الكنيسة الكاثوليكية والماسونية
٤ ـ دراسات فلسفية لاهوتية.
٥ ـ الرهبان الانطونيون وتاريخ لبنان.
٦ ـ أجمل ما قرأت.
٧ ـ مفهوم الديمقراطية عند تيار دي شاردن.
٨ ـ العلم والمسيح لتيار دي شاردن، ترجمة بالاشتراك مع المطران عبده خليفه.

الإهداء

إلى كنيستي التي أحببت
من خلال عظمائها الذين أحيوها
بدمائهم كشهداء وبمعاناتهم
كمضطهدين في قلبها
وإلى رهبانيتي الأنطونيّة المارونيّة
التي حضنتني وعلّمتني لكي أخدم المسيح
وكنيسته وشعبه والإنسان من خلالها
راجيًا منه تعالى أن يُبارك عملي هذا
خدمةً للنفوس وترسيخًا للإيمان.

إيريناوس
أسقف مدينة ليون

ايـرينـــاوس
(+ ٢٠٢)

مقـدّمـة

في الوقت الذي كانت فيه كنيسة المسيح تواجه هجومات اليهودية والوثنيّة على السواء، وتقدّم الشهداء، الواحد تلو الآخر، من جرّاء الاضطهاد الذي لحق بالمسيحيين في الامبراطوية الرومانية المترامية الأطراف، كانت ايضاً تواجه هجومات الغنوصيّين الذين رفضوا الوحي الالهي كأساس للمعرفة اللاهوتية، مبشّرين بمعرفة عقليّة هي خليط من مبادئ فلسفيّة ـ دينيّة تعتمد على الرمزيّة في تفاسيرها لما جاء في الكتب الالهية. وفي الواقع، فلقد حاولت الغنوصية ان تخلق تيّاراً مسيحيّاً جديداً، موافقاً للعصر كما يدّعي تبّاعها، هو مزيجٌ من أساطير الشرق الدينية ومن المبادئ الخلقيّة للفلسفة اليونانية. وبالطبع، في تيّارٍ كهذا، لم يبقَ دورٌ للوحي الالهي في المعرفة اللاهوتية، وحتى في الايمان بانجيل المسيح. والكمال، الذي كان غاية الغنوصيين الاساسية، لا يمكن التوصّل إليه، في نظرهم، إلا بالمعرفة العقلية كطريقٍ أخيرٍ الى معرفة الله، الأمر

الذي دفع بالكثيرين منهم الى تشويه حقيقة الوحي بالذات ومحاربة الكنيسة من خلال محاربة تعاليمها المبنيّة على هذا الوحي. ثم ان الغنوصية، التي كانت منتشرة كثيراً بين افراد الطبقة المثقّفة من المسيحيين، راحت تبشّر باله صالح وبخالق للعالم شرّير، الأمر الذي جعلها تعلن أن هناك إلهين في صراع دائم، هما إله الخير وإله الشرّ. وللخلاص من سيطرة إله الشرّ، فان المعرفة وحدها هي المحرّر، لذلك توجّب على كلّ غنوصي العودة الى العقل، محتفظاً بالاسرار ضمن سرّية كاملة لأن هذه الأسرار لا يفهمها إلاّ قلّة من البشر اعطيت لهم هذه الموهبة، ومنها ان يسوع الانسان هو الذي صلب وليس المسيح، وبالتالي فان القيامة لا تطال الجسد، الذي تعرّض للفساد، بل النفس.

امام هذه الأفكار وغيرها من التي بشّر بها «باسيليدوس» وابنه «إيزيدورس» و «ڤالينتينوس» و «فلورينوس» و «ماركيون» وغيرهم من الغنوصيين، وقف ايريناوس مدافعاً عن عقيدة الكنيسة، وعن تعاليم الانجيل، وعن الوحي الالهي الذي هو اساس اللاهوت المسيحي. ولقد كان لكتابه «ضد الهرطقات» التأثير الكبير إذ ساهم، الى حدٍّ بعيد، في وضع حدٍّ لأهمّ أزمة ضربت الكنيسة في القرون الأولى للمسيحية. فالمعرفة العقليّة التي ارادها الغنوصيون، في الأصل، طريقة تأمّل

وتبصّر في معطيات الايمان، انقلبت على هذه المعطيات وتركت الوحي جانباً، طارحةً مذاهب فلسفية جديدة هي بعيدة كلّ البعد عن كلّ ما جاء في العهد القديم والعهد الجديد. فـ«ماركيون» مثلاً يرفض إله العهد القديم العادل ويعطيه اجازة ليؤكّد على ان الاله الصالح هو الذي ظهر في يسوع المسيح. و «ڤالينتينوس» يشدّد على الصراع القائم بين الله والعالم من خلال ثنائية تقرّ بمبدأين متعارضين، احدهما الخير والآخر الشرّ. ومن جرّاء ذلك انتشر الأدب المسيحي الغنوصي في كل اصقاع الامبراطوية الرومانية متقدّماً على الأدب المسيحي الارثوذكسي الكاثوليكي، حتى ان هذا الأدب الغنوصي كاد يطيح بكل تعاليم الكنيسة الحقيقيّة المستمدّة من الوحي الالهي ومن الانجيل المقدس. وفي مدينة «ليون» بالذات كان لأحد الغنوصيين الخطرين، الذي يدعى «ماركوس»، تأثير كبير على المسيحيين هناك بحيث ان ايريناوس، الذي كان يعتبر ضمير الكنيسة، اضطرّ لمحاربته علناً، مفنّداً تعاليمه بمنطقٍ عقلي وبايمان عميق. والسلطة التي كان يدّعيها الغنوصيون لم تكن سوى نتاج عقلهم وغاياتهم الشخصية. امّا سلطة الكنيسة والاساقفة، التي دافع عنها ايريناوس، لم تُعطَ لهم إلاّ لأنهم أوفياء للتقاليد، وللايمان المعلن. وبمقابل تعدّد الشيع أكّد ايريناوس على وحدة الايمان ووحدة تاريخ الخلاص البشري.

وبعيداً عن كل تصادم مع التاريخ اليهودي كما فعل الغنوصيون، فان ايريناوس قد شدّد على وحدة البشرية التي انتزعها الله من الخطيئة في المسيح الذي وجّهها الى كمالها وخلاصها. فالله الآب يسهر عليها، والله الابن يوجّهها ويكمّلها، والله الروح القدس يغذّيها ويطوّرها. ورغم قساوته في موقفه فاننا نستشف من مؤلفاته انه كان رجلاً عادلاً ورصيناً، يحترم حتى اعداءه، وذلك يعني أنه كان راعياً صالحاً، يسهر على قطيعه بكل حنانٍ وعطف. غير ان حنانه وعطفه وابوّته لم تمنعه من الوقوف سدّاً منيعاً في وجه هذه الهرطقات التي كانت تهزّ الكنيسة في اعماقها. من هنا كان لكتاباته الوقع الكبير، واعتبر أهمّ لاهوتيّي القرن الثاني المسيحي دون منازع، وكان الحكم والمرجع في شؤون الايمان والعقيدة. وهذا ما سنراه مفصّلاً في هذا الكتاب الخامس من موسوعة «عظماء المسيحيّة في التاريخ».

القسم الأول

إيريناوس

الأسقف والراعي والمدافع عن الايمان

١
ايريناوس الأسقف الراعي

بين الوجوه المشرقة ايضاً، التي عرفتها المسيحيّة في القرن الثاني الميلادي، وجه القديس ايريناوس، اسقف مدينة ليون، الذي يعتبر بحقّ أهمَّ لاهوتيّي هذا القرن. فمؤلفاته العديدة، وميزته اللاهوتية، ومحاولاته المستمرّة لتركيز العقيدة في وجه الذين حاولوا النيل منها، خصوصاً الغنوصيين الذين أتينا على ذكرهم في المقدمة، جعلت منه أباً من أهمِّ آباء الكنيسة، ومرجعاً مهماً استندت اليه في القرون اللاحقة، وحكماً في الايمان كانت له اليد الطولى في تثبيت الوحي الالهي الذي رفضته التيارات المناهضة له والتي ادّعت ان العقل هو المرجع الأول والأخير.

هذا الآتي الى بلاد «الغال» من آسيا الصغرى، وبالتحديد من مدينة «إزمير»، حيث كان مولده على الأرجح ما بين سنة ١٤٠ و١٦٠ مسيحيّة، كان يفصله جيل واحد عن يوحنا الرسول، إذ عاش ايام شبابه في جوار القديس «پوليكربوس»، واستمع الى مواعظه وارشاداته، وتثقف على يده من خلال اتصال شخصي به. والذي يؤكد على ذلك هي رسالته التي بعث بها الى

الكاهن «فلورينوس»، يحثه فيها على العودة الى الايمان الحقيقي بعد أن انتقل الى الغنوصية واعتنق مبادئها. يقول في الرسالة: «لقد عرفتك وانا شاب بالقرب من القديس پوليكربوس، في آسيا الصغرى. لقد عرفتك شخصية مرموقة في البلاط الامبراطوري وانت تسعى لتوطيد علاقتك بالامبراطور. وانا اذكر الأحداث الماضية بصورة أفضل بكثير من الاحداث الحاضرة، لأن ما نعلمه في الصغر يكبر مع الروح، ويتحد بها، ويصبحان واحداً. أستطيع ان أحدّد المكان حيث اعتاد الطوباوي پوليكربوس الجلوس ليتحدّث، وكيف كان يدخل ويخرج، ونوعية حياته، ومظهره الخارجي، والخطب التي كان يوجّهها للشعب، وكيف كان يتكلم عن علاقته بالقديس يوحنا وبالرسل الذين شاهدوا السيّد، مستعيداً أقوالهم والأشياء التي تعلّمها من أفواههم عن المخلّص، وكل ما له علاقة بمعجزاته وتعاليمه. ما زلت أعي كيف كان ينقل إلينا پوليكربوس هذه الأشياء كلها متطابقة مع الكتب المقدسة لأنه تلقّاها من شهود عيان رأوا «كلمة الحياة». أصغيت الى هذه الأشياء بشغف في سنواتي تلك بفضل نعمة الله ورحمته، وسجّلت مقاطع منها، ليس على الورق، بل في قلبي. وانا أتأملها دائماً بأمانة واخلاص بفضل الله علي وبنعمته» (أوسابيوس القيصري: التاريخ الكنسي، ٥، ٢٠، ٥ ـ ٧).

هذه الرسالة تدلّنا بوضوح على ان ايريناوس قد اتّصل بالعصر الرسولي بواسطة القديس «پوليكربوس» الذي استمع الى خطبه، وتحدّث إليه، وتثقّف على يده، وعايشه، قبل ان ينتقل الى مدينة «ليون» الغالية حيث كان الآسيويون قد أتوا من الشرق واستوطنوا فيها. وفي طريقه الى «ليون» مرّ في «روما» حيث التقى كثيرين من ابناء بلده، وعاش معهم مدّة وجيزة، زائراً جميع الأماكن المقدّسة حيث عاش المسيحيون الاول واستشهدوا. المؤرخ الفرنسي «غريغوريوس التوري» يعتقد ان القديس «پوليكربوس» هو الذي أرسل ايريناوس الى «روما» والى «ليون» ليكون بالقرب من أبناء بلده، وهذا ما أكده العالمان «همّر» (Hemmer) و «لوجي» (Lejay) في كتابهما «الآباء الرسوليون»: «إن ايريناوس كان في روما سنة استشهاد الأسقف پوليكربوس يسهر على رعاية كثيرين من المؤمنين» (الآباء الرسوليون، باريس، ١٩١٠، الجزء الثالث ، ص ١٥٨). وإذا ما عدنا الى رسالة ايريناوس بالذات التي ارسلها الى البابا «ڤيكتور»، والتي يذكرها المؤرخ «اوسابيوس القيصري» في «التاريخ الكنسي»، ٥، ٢٤، فان هذه الرسالة تُعتبر مكتوبة بيد شاهد عيان، خصوصاً عندما يتكلّم عن اقامة القديس «پوليكربوس» في «روما». امّا علاقته بالقديس «پوستينوس» الروماني فتبدو واضحة، خصوصاً وان

القديس «هيبوليتوس» و «كايوس» الرومانيين قد كانا من تلامذته، وذلك تأكيد على ان ايريناوس قد عاش في «روما» لمدّة وجيزة.

وبعد «روما» نجده، سنة ١٧٧ م، في «ليون»، وقد أصبح كاهناً على يد القديس «بونتينوس»، اسقف المدينة. والذي يؤكد على ذلك الأحداث التي وقعت في تلك المدينة لاخوانه الاسيويين الذين ذهبوا ضحيّة الهرطقة «المونتانيّة» التي أنكرت السلطة الكنسية ودعت الى مناقبية صارمة، معلنةً نهاية العالم القريبة، ومعتبرةً نفسها الكنيسة الجديدة. غير ان «شهداء ليون» (هكذا كانوا يسمّون أنفسهم) قد انتفضوا في وجه تلك الهرطقة، وأرسلوا ايريناوس، بصفته كاهن مدينتهم، ليقابل البابا «إلوتيروس» ويتوسط لهم عنده. والرسالة التي حملها ايريناوس الى البابا في المناسبة تلبسه أفضل الصفات، اذ جاء فيها: «لقد طلبنا من اخينا ورفيقنا ايريناوس ان ينقل إليكم رسالتنا هذه، راجين ان تثقوا به وتحترموه لأنه كثير الاندفاع في سبيل بشارة المسيح. وبما اننا ندرك المكانة التي يمنحها العدل لمن هو جدير بذلك، فانه من المحتّم علينا ان نوصي به بصفته كاهن مدينة ليون» (اوسابيوس القيصري: التاريخ الكنسي، ٥، ٤، ٢). وخلال وجوده في روما عمّ الاضطهاد مدينة «ليون» واستشهد اسقفها الشيخ

«بونتينوس»، الأمر الذي دفع بالبابا «إلوتيروس» لتعيين ايريناوس خلفاً له.

عن اسقفيّة ايريناوس، ما عدا مؤلفاته التي وصلتنا، لا نعرف الكثير إلاّ في ما يختص بالجدل الذي كان قائماً بين كنيسة «روما» والاسيويين الذين كانوا يعيّدون عيد الفصح في الرابع عشر من شهر نيسان. فروما كانت تعيّد نهار الأحد الذي يلي الرابع عشر من نيسان، بينما التقليد الشرقي كان يعيّد ذلك مع اليهود، وهذا ما دفع بمعلّم ايريناوس القديس «پوليكربوس» للمجيء الى روما، سنة ١٥٤ م، للتداول في الأمر مع البابا «أنيكتوس» الذي رفض التقليد الشرقي. وفي سنة ١٩٠ م، وخلال حبرية البابا «ڤيكتور»، احتدم الجدل من جديد حول قضية عيد الفصح، الأمر الذي دفع بقداسة الحبر الأعظم لحرم الاسيويين ولمنعهم من الاحتفال بالعيد في الرابع عشر من نيسان. غير أن ايريناوس، رغم قناعته بان الاحتفال يجب ان يكون نهار الأحد الذي يلي الرابع عشر من نيسان حسب توجيهات «روما»، فقد طلب الى البابا أن لا يقطع العلاقة مع كنائس آسيا التي كانت وفيّة للتقليد الشرقي الذي ورثته عن الرسل. وفي نهاية المطاف تبنّى الأسيويون توجيهات «روما» وابتدأوا بالاحتفال بعيد الفصح في الأحد الذي يلي الرابع عشر من نيسان، وذلك نزولاً عند تدخّل ايريناوس نفسه الذي

كان له الشأن الكبير بين ابناء بلده في الشرق والغرب، والذي عاش اسمه، فعلاً لا قولاً، مثبتاً أنّه «صانع السلام».

المؤرخ «اوسابيوس القيصري» يذكر، في معرض كلامه عن الجدل الذي كان قائماً بين كنيسة الشرق وكنيسة الغرب حول موعد الاحتفال بعيد الفصح، بعض ما جاء في رسائل القديس ايريناوس التي وجّهها الى الغاليين باسم اخوانه الأساقفة، والتي يحثّهم فيها على التقيّد بتوجيهات «روما». وفي الواقع، فان ايريناوس كان يعتبر رئيس اساقفة «غاليا»، او بالاحرى كان على رأس هذه الكنيسة الكاثوليكية التي كانت ممتدة في كلّ البلاد. وفي كتابه «مجامع وبراءات أبرشية ليون»، الذي أصدره سنة ١٩٠٥، يذكر المؤرخ «مارتين» أن ايريناوس ترأس مجمعين خلال سنة ١٩٩ م، الأوّل لادانة هرطقة «ماركيون» وبحضور اثني عشر اسقفاً، والثاني بخصوص الاحتفال بعيد الفصح، وبحضور ثلاثة عشر اسقفاً. أمّا «غريغوريوس التوري» فيذكر في كتابه «تاريخ الفرنسيين» أن ايريناوس قد أرسل تلامذته القديسين «فيليكس» و «فورتوناتوس» و «أكيلوس» لتأسيس كنيسة «ڤالينس»، وكذلك «فرّيول» و «فيروسيون» لتأسيس كنيسة «بيزنسون». وهذا ما يؤكد على ان ايريناوس كان الأوّل في بلاد الغال بين اساقفتها.

وامّا عن موته، فان القديس «ايرونيموس» يعتبره شهيداً، رغم انه لم يذكر الطريقة التي استشهد بها، والتي كانت حوالي سنة ٢٠٢ مسيحيّة. وكثيرون كانوا من رأي القديس «ايرونيموس» حول استشهاده، مثل «غريغوريوس التوري»، و «جان فيشر»، و «ألّار»، وغيرهم من الذين كتبوا عنه وعن رفاقه الأربعين الذين ذهبوا ضحيّة الاضطهاد في اوائل القرن الثالث المسيحي. ورغم ان البعض من المؤرخين شكّ في أمر الاستشهاد، فان ذلك لم يمنع الكنيسة من اعتباره هكذا وأحد الآباء الذين كان لهم الدور الكبير في تثبيت المسيحيّة في بلاد الغال. فهذا الأسيوي المولد، والغالي الاختيار والتبنّي، هو الشاهد على العصر الرسولي، والمعلن لطموحات الغرب المسيحيّة. وبين البرابرة، الذين بشّرهم بالمسيح وبدعوته الخلاصية، كان الرجل المنفتح والواعي لمسؤولياته ولرسالته التي حملها على منكبيه وفي ضميره وقلبه، والتي عبّر عنها في كتاباته التي بقيت ذخراً للكنيسة وللأجيال اللاحقة من المؤمنين. وبفضله بقيت ايضا مدينة «ليون» خميرة وحدة، وضمانةً مسيحيّة في أهمّ مرحلة من مراحل الكنيسة الجامعة التي كان لها الاطلالة المؤمنة على منطقة تعتبر اليوم ابنة الكنيسة البكر.

٢
ايريناوس المدافع عن الايمان

بالاضافة الى ادارة شؤون ابرشيته التي كان فيها مثال الراعي الصالح والأب الغيور، فلقد وضع ايريناوس نصب عينيه محاربة الهرطقات، ومن اخطرها «الغنوصية»، النزعة الفلسفية الهادفة الى ادراك كنه الاسرار الربّانية بواسطة العقل، وبالتالي الدفاع عن الايمان وعن العقيدة الكاثوليكية الارثوذكسية التي كانت تعلّمها الكنيسة الرسولية الجامعة. لذلك وضع مؤلفات غنيّة فنّد فيها ادّعاءات الغنوصيين، منتقداً ومحلّلاً المزايدات الكيفيَّة التي وضعوها وبشّروا بها. ولقد أضاف الى معرفته الواسعة بالينابيع حماسة الرسل الاوّلين، واستقامة ناصعة النوايا، أثارتا الاعجاب، وهما تدعواننا اليوم للاقتداء به والسير على دروب التبشير والشهادة بكلّ ما أوتينا من نعم المسيح علينا. امّا معرفته العميقة للتقليد الكنسي، وهي معرفة اكتسبها من القديس «پوليكربوس» ومن آخرين تتلمذوا على يد الرسل، فلقد وفّرت له قاعدة متينة في محاربته جميع الهرطقات، وخصوصاً «الغنوصية». ولكن، مع الأسف، فان مؤلفاته العديدة، التي دوّنها في لغته الأم اليونانية، قد اختفت باكراً جداً، ولم يصلنا منها سوى اثنين، احدهما

يعتبر أهم اعماله على الاطلاق وهو «ضدّ الهرطقات». وتجدر الاشارة هنا الى ان مؤلفه هذا لم يصلنا باللغة اليونانية كما وضعه ايريناوس في الأصل، بل في ترجمة حرفية باللغة اللاتينيّة، مع العلم ان تاريخ صدور هذه الترجمة قد انقسم حوله النقاد. والثاني هو كتابه «توضيح التعليم الرسولي»، الذي وصلنا ايضاً في ترجمة أرمنيّة، ولم يبقَ لنا من الأصل اليوناني سوى مقاطع قليلة جداً.

أ ـ «ضدّ الهرطقات»

العنوان الاساسي لهذا الكتاب هو «كشف الغنوصيّة المزيّفة ورفضها» كما وضعه ايريناوس في الأصل، وكما نقله إلينا المؤرخ «اوسابيوس القيصري». ولكن القرون اللاحقة قد عرفته بكتاب «ضدّ الهرطقات»، ولم تزل هذه التسمية هي المعروفة لغاية الآن، وهي التي تبنّاها اللاهوتي «ماسويات» (Massuet) وأخذها عنه كثيرون من بعده.

يتألف الكتاب، في مجمله، من خمسة أجزاء، او كما يسميّها ايريناوس نفسه من خمسة كتب. فالكتاب الاول يتناول الهرطقة الغنوصية، محلّلاً تعاليمها، وبنوع خاص تعاليم «ڤالنتينوس» (Valentin) وتلامذته، ومقدّماً الحجج التي تنفي صحة ما تقوله. ومن ثم يتطرّق الى بدايات

الغنوصية فيتحدّث عن «سيمون الساحر» (Simon le Magicien) الذي «منه نبعت كل الهرطقات»، معدّداً أسماء رؤساء مدارسها وشيعها مثل «ميناندر» (Ménandre) و «ساتورنيل» (Satornil) و «بازيليدوس» (Basilide)، و «كاربوكراتوس» (Carpocrate) و «سيرينتوس» (Cérinthe) و «سيردون» (Cerdon) و «ماركيون» (Marcion)، و «تاسيانوس» (Tatien) وغيرهم من الذين علّموا تعاليمها، مستدركاً اخيراً ان قائمة الذين تنكّروا للحقيقة لا تقتصر على هذه الاسماء وحسب. امّا الكتب الاربعة الباقية فهي دحضٌ لغنوصية «ڤالنتينوس» و «ماركيون» بواسطة العقل (Ex Ratione)، وبواسطة الكتب المقدسة (Ex Scripturis)، وبواسطة تعليم الرسل (Apostolorum doctrina)، وبواسطة مواعظ المسيح (Per Domini sermones)، الى ان ينتهي الى عرضٍ شامل وكاملٍ عن قيامة الأجساد التي أنكرها جميع الغنوصيين. وينهي كتابه بكلامٍ مطوّلٍ عن «الألفية»، النظرية التي بشّر بها بعض الكتّاب المسيحيين والقائلة بان المسيح سيملك على الأرض مدّة ألف سنة قبل قيامة الموتى، الأمر الذي دفع ببعض المؤرخين لاعتباره «ألفيّ». ولكن ذلك لم يثبت بعدئذٍ.

واما بالنسبة الى اسلوبه الأدبي فانه من الضروري الاعتراف بان العمل، في مجمله، غير واضح تماماً،

سواء أكان من حيث المخطط الموضوع له، أم من حيث وحدة الفكرة. فالاطالة والترداد تجعلان قراءته متعبة، وربما يعود ذلك الى كون المؤلف عمل في اوقاتٍ متباعدة. فمقدمة الكتاب الثالث تعلمنا أن ايريناوس أرسل الكتابين، الاول والثاني، الى صديق له كان قد طلبهما منه. وتوالت الكتب الثلاثة الباقية، الواحد تلو الآخر. ولكن يبدو ان المخطّط قد أُعدّ مسبقاً، اذ يرجع المؤلف منذ الكتاب الثالث الى ملاحظات أبداها فيما بعد حول الرسول بولس ولا نقرأها قبل بلوغنا الكتاب الخامس، بالاضافة الى أنه في نهاية الكتاب الثالث يطلعنا على نيته في وضع الرابع، ثم الخامس. والواضح ان ايريناوس أضاف هنا وهنالك بعض الأفكار وتوسع في التحليلات غير قادرٍ على تنظيم مادته بشكلٍ متجانس. هذه الأخطاء في الشكل، التي تصدم القارئ، ناتجة عن نقص في التركيب والجمع. ورغم ذلك استطاع ايريناوس ان يقدم عرضاً بسيطاً وواضحاً ومقنعاً لعقيدة الكنيسة. وعمله هذا مهمٌّ، ومهمٌّ جداً، لمعرفة الأنظمة الغنوصية ولاهوت الكنيسة القديمة. فهو لا يطمح الى العمل الأدبي، إذ يقول: «لا تنتظروا منّي، انا المقيم عند «السلتيّين»، والمرغم غالباً على التعبير بلهجة بربريّة، عرضاً للبلاغة الأدبية إذ لم أدرسها يوماً ولم أمارسها. ولا تنتظروا مني كذلك روعةً في الاسلوب، ولا قدرة على الاقناع، وهما صفتان لا

ادّعيهما ولا أطمح إليهما... بل تقبّلوا، بروح متسامح خيّر، ما اكتبه لكم لأنّني اكتب ببساطة واخلاص وتواضع (ضد الهرطقات، الكتاب الاول، المقدمة، ٣). وفي الواقع، فان غاية ايريناوس كانت تفنيد العقائد الغنوصية والتنبيه الى خطرها، مستنداً في ذلك الى مطالعاته العديدة، خصوصاً كتب الذين جاؤوا قبله وسبقوه الى مقاومتها، مثل «أقوال قدامى آسيا الصغرى»، وكتاب القديس «يوستينوس الروماني» ضدّ «ماركيون»، وغيرها من الكتب التي لم تصلنا وقد ضاعت مع الزمن. لذلك فانه من الصعب جداً القيام بدراسة مقارنة بين ما كتب ايريناوس وما كتبه غيره عن هذا الموضوع نظراً الى اختفاء النص الاساسي عند الجميع. فكتابه «ضد الهرطقات» لم يصلنا إلاّ مترجماً باللغة اللاتينيّة، وهذه الترجمة ربّما تمّت ما بين سنة ٣٧٠ و٤٢٠ م، في شمال افريقيا حسب اعتقاد العالمين «جوردان» (Jordan) و «سوتير» (Souter)، كما ان هناك ترجمة حرفية باللغة الارمنية للكتابين الرابع والخامس، وترجمة باللغة السريانية لثلاثة وثلاثين مقطعاً موزّعة على الكتب الخمسة. على كل حال، المهمّ في الأمر هو ان المؤرخين أكّدوا على ان الكتاب هو لايريناوس، وانه نقل إلينا صورة واضحة عن مرحلة من أهم مراحل الكنيسة في ذلك الزمن.

ب ـ «توضيح التعليم الرسولي».

بالاضافة الى كتابه «ضدّ الهرطقات»، الذي كان مرجعاً مهمّاً للكنيسة كما ذكرنا، هناك كتاب آخر بعنوان «توضيح التعليم الرسولي»، وبقي مفقوداً لغاية سنة ١٩٠٤ م، حيث تمّ اكتشافه، مترجماً للغة الأرمنية، في مخطوطات كنيسة أمّ الله في «يريڤان» (أرمينيا الروسية) على يد النائب البطريركي المطران «كارابيت تير ـ ميكير تشيان» (Karapet Ter – Mekerttschian) الذي طبعه في مدينة «لايبزيغ» (Leipzig) سنة ١٩٠٧ م، مع ترجمة المانية قام بها هو والعالم «ايرڤند تير ـ مينا سيانتز» (Ervand Ter–Minassiantz) وحققها العالم «هرناك» (Harnack). المخطوط يعود الى منتصف القرن الثالث عشر. امّا الترجمة فتعود الى القرن الخامس او السابع او الثامن، وهي ترجمة حرفية ربّما نقلت عن الأصل اليوناني او عن ترجمة سريانية سابقة.

هذا الكتاب ليس كتاب تعليمٍ ديني كما اعتقد بعض العلماء، بل هو، حسب ما جاء في عنوانه، بحث دفاعي في اثبات العقيدة المسيحيّة. وهو يتألف من قسمين ما عدا المقدّمة (١ ـ ٣) التي هي ملاحظات عامّة يعرض من خلالها ايريناوس الاسباب التي دفعته الى القيام بهذا العمل. امّا القسم الاول (٤ ـ ٤٢) فيبحث في محتوى الايمان المسيحي، وفي الثالوث الأقدس، وموضوع

الخلق ووقوع الانسان في الخطيئة، وسرّ التجسّد والفداء، وسهر الله على الانسانية من آدم الى المسيح. وامّا القسم الثاني (٤٣ ـ ٩٧) فيؤكّد على صحّة حقيقة الوحي، مستنداً في ذلك الى نبوءات العهد القديم. فيسوع هو ابن داود والمخلّص المنتظر. وبهذا المعنى يقول: «اذا كان الأنبياء قد بشّروا بظهور ابن الله على الأرض، وحدّدوا مكان ظهوره والطريقة التي سيتجلّى بها، واذا كان السيّد قد حقّق بشخصه كلّ النبوءات، فان ايماننا به يستند الى أساس متين، وان نهج تبشيرنا لن يكون إلاّ صحيحاً، بمعنى ان شهادة الرسل صحيحة، هؤلاء الذين ارسلهم السيّد وبشّروا العالم كلّه بان ابن الله جاء ليتحمّل الآلام، وأنه تألم حقاً كي يبطل الموت ويحيينا» (التوضيح، الفصل ٨٦).

وفي النهاية يحثّ ايريناوس قرّاءه على العيش بحسب قواعد الايمان، محذّراً اياهم من الهرطقة وكفرها، وطالباً منهم العودة الى كتابه «ضد الهرطقات» لرفض الغنوصية واتباعها.

ج ـ «المؤلفات المفقودة»

١ ـ رسالة الى الكاهن «فلورينوس» (Florinus) عن السلطة، مؤكّداً فيها على ان الله لم يخلق الشرّ. هذه الرسالة ذكرها المؤرخ «اوسابيوس القيصري» في

«التاريخ الكنسي»، ٥، ٢٠، ٤ ـ ٨، واعطى منها مقطعاً مطوّلاً.

٢ ـ رسالة الى «بلاستوس» (Blastus) حول البدع. «اوسابيوس القيصري» لم يذكر منها سوى العنوان في «التاريخ الكنسي»، ٥، ٢٠، ١.

٣ ـ رسالة الى البابا «ڤيكتور» محفوظٌ منها مقطع باللغة السريانية، وهي بمثابة طلب من ايريناوس موجه الى قداسة البابا ليتدخل في أمر الكاهن «فلورينوس» ويحرق مؤلفاته.

٤ ـ رسالة الى البابا «ڤيكتور» حول تاريخ الاحتفال بعيد الفصح يذكرها «اوسابيوس القيصري» في «التاريخ الكنسي»، ٥، ٢٣، ٣؛ ٢٤، ١١ ـ ١٧.

٥ ـ مجموعة المواعظ التي القاها ايريناوس حول رسالة القديس بولس الى العبرانيين وحول سفر الحكمة. هذه المجموعة يذكرها ايضاً المؤرخ «اوسابيوس القيصري» في «التاريخ الكنسي»، ٥، ٢٦.

أمّا المؤلفات الباقية فهي بالتأكيد منسوبة الى ايريناوس ولا مجال لذكرها هنا.

القسم الثاني

إيريناوس اللاهوتي

١
الثالوث الأقدس في لاهوت ايريناوس

ثمّة سببان يعلّلان أهمية ايريناوس اللاهوتي. اولاً إنه أزاح النقاب عن الصفة المسيحيّة المزيّفة التي انتحلتها الغنوصية، مسرعاً بالتالي الى استبعاد المنتسبين إليها، ومدافعاً عن عناصر الايمان التي أنكرها الغنوصيون، وثانياً إنه كان أهمّ لاهوتيي القرن الثاني المسيحي اذ اعتبر مؤسّس هذا اللاهوت، خصوصاً في ما يختص بعقيدته حول الثالوث الأقدس وسرّ الفداء والاسرار الكنسيّة جميعاً. ورغم اعتباره كذلك، فانه كان حذراً امام التحليلات اللاهوتية، اذ يقول: «من الأفضل عدم معرفة اي شيء، حتى ولا سبب واحد من الاسباب التي من اجلها صنعت أصغر موجودات الخليقة، بل ان نؤمن بالله ونثابر في المحبة، بدل أن نغترّ بمعلومات مشابهة فنخسر محبّة هي حياة الانسان. ومن الأفضل ايضاً ان لا نبحث عن معرفة غير يسوع المسيح، ابن الله، الذي صلب من أجلنا، بدل ان نسقط في الالحاد والزندقة من أجل اسئلة دقيقة ومجادلات غامضة ومعقّدة» (ضدّ الهرطقات، ٢، ٢٦، ١).

وبالرغم من هذا الموقف الحذر تجاه اللاهوت

النظري، فايريناوس له الفضل في كونه اوّل مؤلّف عبَّر بمفاهيم لاهوتية عن العقيدة المسيحيّة. ففي موضوع الثالوث نرى انه لا يجادل في علاقة الاقانيم الثلاثة، لكنه مقتنع بأن تاريخ البشرية يثبت بوضوح وجود الآب والابن والروح القدس. الأشخاص الالهية كانت موجودة قبل خلق العالم، ذلك ان الكلمات «لنصنع الانسان على صورتنا ومثالنا» موجّهة من الآب الى الابن والروح القدس اللذين يدعوهما ايريناوس مجازاً «يديّ الله» (ضدّ الهرطقات، ٥، ١، ٣؛ ٥، ٥، ١؛ ٥، ٢٨، ١). وكما الآباء اليونان فانه يضع في الدرجة الاولى الاقانيم الثلاثة، بعكس الآباء اللاتين الذين يشدّدون على الوحدة الالهية بدل الثالوث. فالاقانيم الثلاثة، او الأشخاص الثلاثة، هي محور لاهوت ايريناوس. ونقطة الانطلاق نجدها في صيغة العماد: «انا اعمّدك باسم الله الآب، والله الكلمة، والله الروح القدس». وهذه الصيغة المعروفة عند ايريناوس، والتي اتبعتها الكنيسة الغالية لمدّة طويلة، تؤكد التمييز بين اشخاص الثالوث وليس في وحدة الجوهر. فهو عندما يسمّي «الله» يعني بذلك الله الآب حسب ما جاء في الكتب المقدسة (Qui et solus est Deus et pater). اما عندما يتكلّم عن المسيح فيسميّه «كلمة الله» او «ابن الله» او «كلمة الآب» او «ابن الله الوحيد». وكما ان كلمة «الله» تعني «الآب»، كذلك كلمة «السيّد» تعني عنده «الابن». واما بالنسبة الى الروح القدس فهو

يسمّيه «روح الله» او «روح الآب» او «روح الابن»، وذلك ليتطابق مع الكتب المقدسة التي لا تدعوه الله بل تحصر ذلك في الآب والابن. وهذه الطريقة في التعبير اتّبعها كثيرون من الآباء الذين دافعوا عن ألوهية الروح القدس، ولا تعني أن هناك شكاً بذلك. كذلك نرى ايريناوس يؤكد بعض الأحيان، ولمرّات ثلاث، ان الدم الذي أخذه المسيح في تجسّده ليس من بشر، بل من الله الذي كوّنه بزرع الروح القدس.

اذن «الكلمة» هو مولود من الآب. ولكن كيف؟ ايريناوس يرفض شروحات الغنوصيين الذين يعتبرون أن المسيح، كلمة الله، ولد كما تولد الكلمة من فم المتكلّم. إنه بالاحرى، أعني المسيح، مولود في قلب الله منذ الأزل، وهو معه منذ البدء (Semper autem coexistens Filius Patri)، وبعدئذٍ خلق السموات والارض وما فيهما. الكلمة اذن هو من جوهر الآب. فالآب «سيّد» والابن «سيّد» ايضاً، وبكلام آخر: فالآب «ربّ» والابن «ربّ». ومن ولد من الله فهو إله. واذا كنا نعترف به وبقدرته، ففي الوقت نفسه نعترف أنه إله واحد. الآب والابن هما حتى في شراكة الجوهر. كذلك الروح القدس، فهو من جوهر الآب والابن، وفي الشراكة ذاتها. ومع أنه الجوهر ذاته للآب والابن والروح القدس، فان كلّ اقنوم له صفاته الخاصة، والمسيح قد

مُسح من الآب والروح معاً. فالآب غير مخلوق، وغير مولود. والكلمة، ابنه الوحيد، مولود وغير مخلوق ومساوٍ له في الجوهر وأبدي. وعمل الاقانيم الثلاثة يتوزّع حسب المخطّط الالهي الذي وضعه الله الآب. فالله صنع كلّ شيء بواسطة كلمته وحكمته (اي الروح القدس). وفي هذا العمل تبقى وحدة الطبيعة في الاقانيم الثلاثة. فالكلمة والروح القدس هما ما هو الآب نفسه، رغم ان الأقانيم الثلاثة هي غير ممزوجة، بل متميّزة، لأن كلّ اقنوم يعمل بواسطة الاقنومين الآخرين. وفكرة ايريناوس ان الله صنع كلّ شيء بواسطة «يديه»، أعني الكلمة والروح القدس، يعلّق عليها اللاهوتي «دي رينيون» (de Régnon) قائلاً: «يظهر ان دور الله الآب هو الأمر والتوجيه، بمعنى أنه مصدر حركة الخلق. امّا بالنسبة الى الكلمة (الابن) والروح القدس، فان مهمتهما طاعة الآب، وتحقيق ما يأمر به، والعمل على ايصال كلّ شيء الى غايته، وذلك لانهما «يدا» الآب. ولكن يظهر ايضاً ان لكلّ يدٍ دورها، وفي تحقيق ارادة الآب كلّ يد تعمل ما هو خاصتها» (دراسات حول اللاهوت الوضعي للثالوث الأقدس، الجزء الاول، ص ٣٥٠). فالابن هو، في مولده، امتداد الآب. إنه الذي بواسطته حقّق الآب كلّ شيء. وبكلام آخر هو «فنّان كل شيء». اما بالنسبة الى الروح القدس، آخر الثالوث، فهو الذي ينهي كلّ المخلوقات ويجمّلها. «ففي خلق

الانسان مثلاً، يقول ايريناوس، إن الآب يرتضي ويأمر، والابن يعمل ويحقّق، والروح يغذّي وينمّي، والانسان يتطور بهدوء ويتسلّق درجات الكمال، أعني يصبح قريباً من الأزلي والسرمدي الخالد» (ضدّ الهرطقات، الكتاب الاول، الفصل ٣٨). وفي الفصل الخامس من كتابه «توضيح التعليم الرسولي» يقول: «إله واحد، آب، غير مخلوق وغير منظور، خالق كلّ شيء... هذا الاله هو إله عاقل، لذلك صنع جميع المخلوقات بواسطة كلمته. والله هو روح، لذلك جمّل كلّ شيء بروحه... الكلمة وضع الاساس، أعني هو الذي أعطى الكائن جوهره ووجوده، والروح هو الذي اعطاه قواه وجماله». وبكلام آخر، فبما ان الروح القدس هو النهاية، لذلك أعطى هذا الكائن الهدوء والكمال والقداسة. من هنا كلام الآباء اليونان الذين يؤكدون على أن الآب صنع كلّ شيء بواسطة الكلمة في الروح. فعطف الله على الخليقة من الآب الى الابن، ومن الابن الى الروح القدس. انها شريعة الرسالة: الآب يرسل الابن، والابن يرسل الروح القدس، عطية الآب. وهكذا ايضاً تصاعدياً. فاذا اردنا ان نصعد الى الله من اجل خلاصنا، فيجب ان يكون ذلك من الروح الى الابن، ومن الابن الى الآب. وفي هذا الصعود والهبوط، يقول ايريناوس، في الفصل السابع من كتابه «توضيح التعليم الرسولي»: «عندما نتجدّد بواسطة العماد الذي اعطانا اياه الله، باسم

الاقانيم الثلاثة، نحن نغتني، في هذا المولد الثاني، بنعم الله الآب بواسطة ابنه وروحه القدوس. فان المعمّدين يقبلون روح الله الذي يعطيه الكلمة، أعني الابن، والابن يقدّمهم الى الآب، والآب يعطيهم اللافساد». ورغم هذا التوضيح، فاننا نرى، بعض الأحيان، ايريناوس يخلط بين دور الكلمة ودور الروح القدس، او بالاحرى يتحدّث عن شراكة في الادوار، لأنّ الكلمة هو صلة وصل بين الآب والروح، وان الروح هو الذي يظهر الكلمة. وكما أنه يقول مرةً إن الله قد خلق كلّ شيء بواسطة الكلمة والروح القدس معاً، ومرّة اخرى بواسطة الكلمة وحده، ومرّة ثالثة بواسطة الروح القدس وحده، كذلك فان ايريناوس يعتبر حيناً ان الكتب المقدسة قد أوحى بها الكلمة والروح القدس معاً، وحيناً آخر الروح وحده. ولكن المهمّ في هذا العمل الهبوطي والصعودي من الله الى الانسان، ومن الانسان الى الله، يبقى الدور الاساسي للكلمة اظهار الآب. وهنا تجدر الاشارة الى ان ايريناوس قد تأثر كثيراً بما جاء في انجيل القديس متى (١١، ٢٧) وانجيل القديس لوقا (١٠، ٢٢)، حيث نقرأ: «كل شيءٍ قد دفع اليَّ من ابي، وليس أحد يعرف الابن إلاّ الآب، ولا أحد يعرف الآب إلاّ الابن، ومن يريد الابن ان يكشف له»، وهذا يعني، بالنسبة اليه، ألوهة الابن، وشراكة الطبيعة مع الآب، والمعرفة الكاملة لكلّ واحدٍ منهما للآخر. فالله اذن يتمجّد بالكلمة، ابنه

الازلي، الذي كان معه منذ البدء، والذي أظهر أباه للملائكة ولكلّ من اراد الآب ان يعرفه. وعندما يقول ايريناوس إن الله الآب اللامنظور هو منظور في الابن، والابن المنظور هو الآب اللامنظور (Invisible etenim Filii Pater, visibile autem Patris Filius)، فذلك لا يعنى بالنسبة إليه ان الابن لم يكن كذلك إلاّ في التجسّد، ولكن منذ البدء، وفي التجسّد أظهره للملائكة وللبشر الذين هم مستحقون أن يعرفوه. والابن لم ينتظر التجسّد لكي يظهر الآب، بل أظهره اولاً للملائكة، وبعدئذٍ للبشر من خلال آدم وابرهيم وموسى. وامّا الوحي الطبيعي بواسطة الفلاسفة للجنس البشري كما الوحي من خلال شريعة موسى، فذلك يرفضه ايريناوس رفضاً كلياً. إن التجسّد وحده هو الذي أظهر الآب حقيقة.

وامّا الدور الاساسي للروح القدس فهو تقديس كلّ شيء. القديس ايريناوس يقول عنه إنه المقدّس والمطهّر للكنيسة وللمؤمنين. والروح القدس هو الذي أعلن عن مجيء المسيح بواسطة الانبياء. فكلمة الله، الذي بواسطته قد تمَّ كلّ شيء، والذي تكلّم مع موسى، ونزل الى اليهودية، وتجسّد من العذراء مريم، هو الذي حبل به من زرع الروح القدس (توضيح التعليم الرسولي، ٤٠). إنه روح الله الذي نزل على المسيح في نهر الاردن بشكل حمامة معلناً للبشر أنه الابن الحبيب للآب

السماوي، وانّه ايضاً الروح (الروح القدس) الذي أقامه من بين الاموات. وكما كان مع المسيح طوال وجوده متجسّداً على الأرض، كذلك هو مع الكنيسة والمؤمنين يجدّدهم بالنعمة وبالحقيقة التي لا تفسد. إنه الروح المقوّي لكلّ فردٍ منّا، والذي أرشد الابرار في طريق الحق. إنّه الروح الذي نزل على التلاميذ يوم العنصرة في العلية الصهيونية ليعلن ولادة الكنيسة الجديدة التي يرشدها ويوجهها الى الأبد. إنه الروح الذي اتّخذ من كلّ انسان مؤمن بالله هيكلاً له. وبهذا المعنى يقول ايريناوس: «إن إله كلّ شيء سيعطي الحياة الأبدية، بواسطة قيامة الموتى، لجميع الذين يستحقونها في المسيح يسوع، وخصوصاً الى الذين توجّهوا وارشدوا من الرسل وحفظوا نفوسهم واجسادهم بدون خطيئة. ولكن، لكي يبقى المؤمنون هكذا، يجب ان يبقى الروح القدس ملازماً لهم. لقد اعطي لهم في العماد، وسيبقى معهم طالما هم يعيشون في القداسة والحق، وفي العدل والصبر. وبواسطة نعمة الروح القدس فان المؤمنين سيقومون من الموت، نفساً وجسداً، وسيدخلون الى ملكوت الله» (توضيح التعليم الرسولي، الفصلان ٤١ و٤٢).

وباختصار، ورغم كلّ المفارقات التي تحدّث عنها اللاهوتيون بالنسبة الى عمل الله في الخلق، فان

ايريناوس، كما الآباء اللاتين، اعتبر ان القوة هي للآب، والمعرفة للأبن، والحب للروح القدس. فالآب هو الخالق بواسطة الكلمة والروح القدس اللذين اعتبرهما مجازاً «يديه»، وهذه هي القوة. والابن هو الموحي والمظهر، والذي يعرف، وهذه هي المعرفة. وبما ان الخلاص هو نتيجة الحبّ الالهي، فلقد اعطاه الله الآب بواسطة الروح القدس. وارادة وقوة ومعرفة الاقانيم الثلاثة هي موجودة في كلّ عمل يقوم به أحد هذه الأقانيم. فالثالوث الأقدس هو واحد، وعمل كلّ اقنوم فيه هو عمل التخطيط الواحد، والارادة الواحدة، والحب الواحد، والحكمة الواحدة، والخلاص الواحد لجميع البشر وللكون بكل ما فيه من مخلوقات. واذا توزّعت الادوار بين الآب والابن والروح القدس، فليس ذلك إلاّ البرهان الكامل على ان الله الواحد اراد ان يظهر للانسان وللعالم بكلّ غناه ونعمه التي لا يدركها العقل البشري إلاّ جزئياً وعلى مراحل، وليس بدفعة واحدة. وما صورة «يديّ الله» إلاّ للتأكيد على وحدة الثالوث في كل شيء، اذ إن الآب لم يفعل شيئاً إلاّ بمساهمة الابن والروح القدس، وهذا ما يؤكد عليه في كتابه «ضدّ الهرطقات»، إذ يقول: «وان الربّ الاله جبل الانسان تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار الانسان نفساً حية (تكوين، ٢، ٧)، هذا يعني ان ليس الملائكة الذين صنعوا الانسان لأن ليس بامكان الملائكة ان

يصنعوا صورة الله، وليس احداً آخر غير الله، وليس أية قوة خارقة بعيدة عن أب كلّ شيء، وذلك لأن الله لم يكن بحاجة الى أحد ليحقّق ما خطط له منذ البدء، كأن ليس له ايادي تعمل. فمنذ البدء كان بالقرب منه كلمته وحكمته، الابن والروح. إنه بواسطتهما وفيهما صنع كلّ شيء، بحرية ودون اي تأثير، واليهما توجه قائلاً: «لنصنع الانسان على صورتنا ومثالنا» (الكتاب الرابع، الفصل العشرون، العدد الاول). وهكذا فالصورة هي صورة الثالوث في الابن، والمثال هو مثال الثالوث في الروح القدس. لذلك نرى الروح فينا يصرخ قائلاً: «أبّا» اي ايها الآب، اصنع الانسان على صورتك ومثالك. ونعمة الروح الكلية اعطيت لهذا الانسان، فرأى مجد الثالوث في كل أعمال الابن. لذلك كان الله الثالوث حاضراً في الخلق، وفي التجسّد، وفي الفداء، وفي توجيه الكنيسة، وفي خلاص الانسان عبر العصور. وهذا التفكير العميق، الذي أطلقه ايريناوس، جعل منه أهمّ لاهوتيّي القرن الثاني دون منازع، وجعل منه ايضاً مرجعاً مهمّاً على صعيد علاقة الآب بالابن والروح القدس، الثالوث في الوحدة، والثالوث في كلّ عمل قام به في هذا الكون.

٢
الكلمة المتجسّد والفادي في لاهوت ايريناوس

في صراعه مع الغنوصيّين، حاول ايريناوس دحض جميع الهرطقات «المسيحانية» التي كانت متفشّية في القرنين الاول والثاني المسيحيّين، مفنّداً تعاليمها، ومحدّداً اهدافها التي تعتبر المسيح حيناً إلهاً وحيناً آخر انساناً، رافضة الاتحاد الكامل بين الطبيعة الالهية والطبيعة الانسانية. فالبعض منهم، وفي مقدّمهم «كربوكراتوس» و «سيرينتوس» وغيرهما، كانوا يرفضون ألوهة المسيح، معتبرينه انساناً متفوقاً على جميع البشر، ومولوداً من يوسف ومريم كما يُولد جميع الرجال. والبعض الآخر، وفي مقدمهم «ڤالنتينوس» و «ماركوس» و «ساتورنيلوس» و «بازيليدوس» و «ماركيون» وغيرهم، كانوا يرفضون انسانية المسيح، فاصلين بين يسوع الانسان والمسيح الذي هو وسيط بين الله والبشر، معتبرين ان المسيح قد اتحد بيسوع لفترة زمنيّة معيّنة، وفي مناسبات خاصة من اجل عمل خلاصي، ولكن لم يكن يوماً انساناً مثلنا، عرضة لما يمرّ على البشر. ولقد وصل البعض الى القول إن المخلص لم يتحد بالمادة حتى عرضيّاً، بل ان المسيح قد تألم ظاهرياً، متخذاً شكل جسد مادي، او

بالاحرى متخذاً شكل جسد روحاني، ماراً في مريم مروراً دون ان يولد منها فعلاً. وأمام هذه التعاليم الخاطئة، وقف ايريناوس يعلم بشدّة ان المسيح هو حقاً إله وانسان. وهذا ما سنراه لاحقاً، مع ما نتج عن هذا الاتحاد:

أ ـ «طبيعة المسيح الانسانية»

ان يكون المسيح انساناً، فهذه احدى ركائز الايمان المسيحي. وفي هذا المعنى يقول ايريناوس في كتابه «ضدّ الهرطقات»: لقد استلمت الكنيسة من الرسل ومن تلاميذهم الايمان التالي: إن الله هو إله واحد، أب كلّي القدرة... ويسوع المسيح هو ابن الله، وقد تجسّد من اجل خلاصنا» (الكتاب الاول، الفصل العاشر، العدد الاول). فطبيعة المسيح الانسانية، التي أنكرها البعض من الغنوصيين، أكّد عليها ايريناوس من خلال الكتاب المقدس، العهد القديم والعهد الجديد، مستشهداً بما جاء في الأناجيل ورسائل القديس بولس، وبالانبياء الذين سبقوا مجيئه وأعلنوا، بالتفصيل، عن طبيعته الانسانية. كذلك أكّد عليها من خلال اثباته ان التجسّد هو شرط اساسي وجوهري للخلاص، كما القيامة التي هي جوهر العقيدة المسيحية في هذا الأمر. وفي هذا المعنى يقول بكل وضوح: «اذا كان لم يولد، فهذا يعني

ايضاً أنه لم يمت، وإذا كان لم يمت، فهذا يعني كذلك انه لم يقم من الموت، واذا كان لم يقم من الموت، فذلك يعني انه لم ينتصر على الموت ولم يهدم مملكته، واذا كان لم ينتصر على الموت، فكيف بامكاننا نحن ان نرتفع الى الحياة، نحن الذين، منذ البدء، سقطنا تحت ضربات الموت؟ اذن، الذين لا يقبلون خلاص الانسان، والذين لا يؤمنون ان الله سيقيمهم من الموت، هؤلاء وحدهم هم الذين يرفضون ولادة إلهنا ومخلصنا» (توضيح التعليم الرسولي، الفصل ٣٩). كذلك، لكي يؤكّد ايريناوس ايضاً على طبيعة المسيح الانسانية، إنه ينطلق من لاهوت الافخارستيا قائلاً: اذا لم يكن المسيح قد تجسّد، فان كأس الافخارستيا ليست دمه، وخبز الافخارستيا ليس جسده. لذلك، ليس بامكاننا ان نفرّق، مع بعض الغنوصيين، بين المسيح ويسوع، بل ان نقرّ أنّه لا يوجد سوى المسيح يسوع، الانسان الحقيقي. هذا الانسان أخذ جسدنا، جسداً متألماً، ونفساً شبه نفسنا. أخذ جسداً من امرأةٍ مثلنا، وولد من مريم، من سلالة يهودية، من عائلة ابرهيم، من قبيلة يهوذا، من بيت داود. ونسبه معروف، وقد ولد في بيت لحم، ملفوفاً بالاقمطة، وكبر، وهرب الى مصر، وتحمّل العذابات البشرية، وتكلّم، ونام، وجاع، وعطش، وأكل وشرب (ضدّ الهرطقات، الكتاب الثاني، الفصل ٢٢، ٤). لقد تعب، وبكى، وتألم، وعرق دماً، وصلب ايام بيلاطوس

البنطي، ومات على الصليب، ومن جنبه خرج دم وماء، وقبر (ضدّ الهرطقات، ١، ٩، ٣). كذلك كانت له نفس بشرية، حسّاسة وعاقلة، لأنه كان انساناً مركباً من نفس وجسد (ضدّ الهرطقات، ١، ٤ المقدمة)، ولقد اعطانا هذه النفس ليخلّص نفوسنا. وكلمة المسيح «نفسي حزينة حتى الموت»، التي يذكرها القديس متى في انجيله (٢٦، ٣٨)، ليست سوى برهان واضح على أن كانت له تلك النفس التي يتحدّث عنها ايريناوس. والبرهان الآخر على طبيعته الانسانية هو أنّه تجرّب مثلنا، حتى ولو لم يخطىء. فبين المسيح وبيننا، وبين نفسه ونفسنا، تشابه في الطبيعة. له النفس العاقلة، وله الروح المروحنة، وله الارادة، وله كلّ الصفات التي للانسان الحقيقي.

وللتأكيد ايضاً على طبيعة المسيح الانسانية، يعود ايريناوس الى التسلسل التاريخي فيذكر ان المسيح ولد حوالي السنة الحادية والاربعين من امبراطورية «أغوسطوس» (ضدّ الهرطقات، ٣، ٢١، ٣). ورداً على الغنوصيين الذين اعتبروا ان المسيح لم يبشّر إلاّ لمدة سنة بعد عماده، ثم مات في الشهر الثاني عشر بعد ذلك، فان ايريناوس يؤكد، انطلاقاً من انجيل القديس يوحنا انه احتفل لمدّة ثلاث سنوات بالفصح، الأمر الذي يثبت أنه تألم وصلب ومات حسب ما تعلن التقاليد. ورغم

بعض الآراء المتضاربة حول قول ايريناوس، فانه يعتبر المسيح قد مرّ بخمس مراحل في حياته، هي: الرضاعة، والطفولة، والفتوة، والشباب، والكهولة (Infantes, et parvulos, et pueros, et juvenes, et seniores). فالمسيح، في نظره، لم يبدأ تبشيره مباشرة بعد عماده، بل أكمل حياته الخفية حتى وصل الى عمر الثلاثين، عمر الكمال في نظره. وبالطبع، فان كلّ هذه التفاصيل هي للتأكيد على طبيعة المسيح الانسانية، رداً على الذين اعتبروه إلهاً وحسب من الغنوصيين، دون الاقرار بالطبيعة الانسانية التي كانت ملازمة للطبيعة الالهية. وربما يتساءل البعض عن كلّ هذا التشديد من قبل ايريناوس على الطبيعة الانسانية، والجواب على ذلك هو ان نفي هذه الطبيعة كان يوصل الى عدم القبول بسرّ التجسّد والفداء، وهذا كان الخطر الأكبر في ذلك الزمن، وفضل ايريناوس انه شعر به وفهمه وحاربه لتبقى العقيدة سليمة كما علمتها الاناجيل، وكما كان يجب ان تكون لاستمرار الوحي ولاعلان الحقيقة الالهية التي ارادت خلاص الجنس البشري بواسطة تجسّد المسيح يسوع، الاقنوم الثاني من الثالوث، وابن الله الوحيد.

ب ـ «طبيعة المسيح الإلهية»

وكما ان المسيح هو انسان، كذلك هو، في الوقت

نفسه، إله. يقول في ذلك: «هذا هو تعليم ايماننا المنهجي... امّا بالنسبة الى الركيزة الثانية لهذا الايمان فنقول: إنه كلمة الله، ابن الله، يسوع المسيح سيدنا... الذي بواسطته قد صنع كلّ شيء، في ملء الزمن، وصار انساناً، وولد من بشر، واصبح منظوراً وملموساً لكي يهدم الموت، ويعطي الحياة، ويصالح الانسان مع الله» (توضيح التعليم الرسولي، ٦). هذا النص هو خلاصة لاهوت ايريناوس المسيحاني والفدائي، وخصوصاً التأكيد على الطبيعة الالهية والانسانية في المسيح. فالقول إن يسوع المسيح هو كلمة الله الذي أصبح انساناً، فذلك يعني ان الطبيعتين، الالهية والانسانية، هما طبيعتا المسيح، خصوصاً وإنه من جوهر الآب ومولود منه. ويزيد قائلاً: «يجب ان نؤمن أنّ هناك ابن لله، موجود منذ قبل الخليقة، وليس عندما ظهر للعالم. إنه هو، الذي كان منذ البدء، كان عند الله، والذي بواسطته صنع الله كل شيء لأنه ابنه» (توضيح التعليم الرسولي، ٣٣). إنه يسوع المسيح، الموجود قبل العالم، والذي تجسّد لأجل خلاصنا، وله السلطة على جميع المخلوقات. إنه يسوع المسيح الذي تنبّأ الأنبياء عن مولده، وحياته، وموته، وقيامته، وصعوده الى السماء، ومجيئه الثاني، بمجد الآب، ليحاكم العالم في الدينونة الأخيرة: «فاذا كان الانبياء قد أعلنوا أن ابن الله سيظهر على الأرض، وفي مكان معيّن، وبالحالة التي

ظهر فيها؛ واذا كان المسيح قد حقّق كلّ تلك النبوءات في شخصه، فان ايماننا اذن يرتكز على أسس لا تتزعزع» (توضيح التعليم الرسولي، ٩٧، ٩٨). إنه المسيح الذي سيّر التاريخ البشري قبل ظهوره وبعده، وهو الذي عرّفنا الى الآب الذي أرسله لخلاصنا. إنه المسيح الاله الذي أصبح بشراً وولد من عذراء (مريم) ومن زرع الروح القدس، وليس من يوسف، ولقد اعترف بألوهته يوحنا المعمدان، والملائكة، والمجوس، وسمعان هامة الرسل (توضيح التعليم الرسولي، ٤١، ٤٣)، كذلك دعته الكتب المقدسة ابن الله، وهو نفسه قال إنه ابن الله (Ipsum solum esse Filium Dei)، ممارساً سلطته الالهية بالعدل، وغافراً الخطايا، وصانعاً العجائب، والشمس قد انكسفت يوم موته، ونزل الى الجحيم ليخلّص النفوس، وقام من بين الأموات في اليوم الثالث، واعطى تلاميذه السلطة على النفوس، وصعد الى السماء بمجده العظيم، وارسل الروح القدس الى التلاميذ والى كل الأرض (ضدّ الهرطقات، ٣، ٢٧؛ توضيح التعليم الرسولي، ٤١). إنه القيامة ذاتها، والخلاص ذاته، وسلطة الله ذاتها (ضدّ الهرطقات، ٢، ٢٢). إنه نور العالم، والملك الأبدي، ومخلّص البشريّة جمعاء (توضيح التعليم الرسولي، ٣٥، ٤١، ٥١، ٥٦، ٥٨، ٦١، ٦٦، ٩٥). ولسوف يعود ليحاكم الجنس البشري، الأحياء والاموات (ضدّ الهرطقات، ١٠، ١).

امّا ملكه فلا انقضاء له (توضيح التعليم الرسولي، ٣٦، ٤٤).

من كلّ ما تقدّم، هل بامكاننا ان نرى وضوحاً اكثر من وضوح ايريناوس حول طبيعة المسيح الالهية؟ إنه بحق اللاهوتي الذي عرف أن يجابه اخصامه بالبرهان القاطع الذي اعطاه عن طبيعة المسيح الالهية كما عن طبيعته الانسانية. ولكن، لنرى الآن كيف يحلّل اتحاد الطبيعتين.

ج ـ «اتحاد الطبيعة الالهية والطبيعة الانسانية في المسيح»

ان الملفت للنظر، والذي يسترعي الانتباه بعمق، هو تشديد القديس ايريناوس على اتحاد الطبيعتين، الالهية والانسانية، في المسيح يسوع. ففي الكتابين اللذين وصلانا «ضدّ الهرطقات» و «توضيح التعليم الرسولي» نراه يؤكّد، وفي مقاطع متواصلة، على وحدة الطبيعتين كأنّه هاجسه الكبير، لا سيّما وان الغنوصية كانت قد ضربت العقيدة المسيحيّة في صميمها يوم رأت في المسيح إمّا إلهاً وحسب، وامّا انساناً وحسب. وللردّ عليها، وايضاً كأنه يردّ على «نسطوريوس» مسبقاً، ينطلق من سرّ التجسّد، معلناً ان ابن الله، المسيح يسوع، كلمة الله، قد أخذ جسدنا، وولد فيه، ليخلصنا (ضدّ

الهرطقات، ٣، ٩، ١؛ ٣، ١٨، ٧؛ ٣، ١٩، ٩؛ ٤، ٢٠، ٢ـ٤؛ ٤، ٣٣، ١؛ ٥، ١٤، ١؛ توضيح التعليم الرسولي، ٥٣، ٩٤). فالمسيح يسوع هو ابن العلي وابن داود، هو ابن الله وكلمة الآب، لقد حلّ بيننا وأخذ طبيعتنا الانسانية ليشاركنا في كلّ شيء، فائضاً نعمة الآب بواسطة تجسّده، ومطعّماً الطبيعة الانسانية بالطبيعة الالهية لكي يرفعنا الى ابيه السماوي. وكلمة «التدبير الالهي»، المألوفة عند ايريناوس وعند الآباء اليونان، تعني نعمة التجسّد ومجمل المخطط الالهي لخلاص البشرية بواسطة الكلمة المتجسّد (توضيح التعليم الرسولي، ٦، ٤٧). فالاتحاد الاقنومي، او اتحاد الطبيعتين، هو اتحاد كلمة الله، الذي من جوهر الآب، والابدي والسرمدي والازلي، مع الطبيعة البشرية، في الزمن، من أجل الخلاص الذي وعد به آدم بعد الخطيئة. هذا الاتحاد، الذي رفضه الغنوصيون نظراً الى أنهم فصلوا بين يسوع والمسيح، تمحور كل لاهوت ايريناوس حوله لأنه اعتبر ان لا خلاص للبشرية بدونه. وبهذا المعنى يقول اللاهوتي «بوزار» (Beuzart): «إن ايريناوس اراد ان يصون امكانية الخلاص وحقيقته، لذلك رأى ان لا امكانية لهذا الخلاص ان يتحقّق فعلاً الاّ بواسطة المسيح الذي له الطبيعة الالهية والطبيعة الانسانية على حدّ سواء» (بوزار: محاولة في فهم لاهوت ايريناوس، ص ٨٥). وفي كتابه «توضيح التعليم

الرسولي» يقول ايريناوس: «إن كلّ ما جاء في الكتب المقدسة يؤكد على ان المسيح، الذي هو من ذرّية داود حسب الجسد، هو ابن الله الذي سيحاكم العالم بعد ان قام من الموت» (٣٠، ٣٩، ٤٨، ٥٢، ٦٢، ٧١، ٨٤، ٩٢). والله، الذي اراد ان يجدّد البشرية بعد خطيئة آدم، أوكل ذلك الى ابنه المتجسّد الذي أصبح، بالنسبة إلينا، آدم الثاني. فسقوط الانسان في الخطيئة أهلك الجنس البشري بكليته، واضطرّ ابن الله لأن يصبح انساناً كي يحقق، بهذه الصفة، خلقاً ثانياً للبشرية. وفي ذلك يقول: «الذي هلك امتلك لحماً ودماً... والمسيح ايضاً امتلك لحماً ودماً كي يسترجع فيه ما صنعه الآب الى حالة البرارة الاولى» (ضدّ الهرطقات، ٥، ١٤، ٢). فالمسيح وحده كان قادراً على تخليص الانسان من نتائج الخطيئة لأنه إله وانسان على السواء، ولأن اتحاد الطبيعة الالهية بالطبيعة الانسانية كان ضرورياً لهذا الخلاص.

د ـ «المسيح الفادي»

من المعروف ان لاهوت الفداء قد تطوّر في اتجاهين رئيسين في القرون الاولى من تاريخ الكنيسة. فالاتجاه الاول، الذي تمثّل بالآباء اليونان، استوحى، بنوع خاص، القديس يوحنا، حيث نرى ان موت المسيح هو في الدرجة الثانية، بينما سرّ التجسّد هو الاساس حيث

ان القيامة والخلاص هما نتيجة التقاء الطبيعةالالهية بالطبيعة البشرية، وهذا ما يدعوه اللاهوتيون المفهوم الصوفي للفداء. والاتجاه الثاني، الذي تمثّل بالآباء اللاتين، والمستوحى من القديس بولس، يشدّد على الموت الفدائي وعلى الحبّ الكبير الذي حمله إلينا ابن الله من اجل خلاص الجنس البشري، وهذا ما يدعوه اللاهوتيون المفهوم الواقعي للفداء. هذان الاتجاهان نجدهما عند ايريناوس الذي يعدّد الاسباب التي من اجلها تجسّد كلمة الله قائلاً: ان المسيح تجسّد اولاً من اجلنا ومن اجل خلاصنا، وثانياً من اجل ان يتحدنا بالله ويقدّمنا لأبيه السماوي، وثالثاً ليخلصنا من جهلنا ويعطينا المعرفة التي من الله، ورابعاً ليصالحنا مع الله ويعطينا الحياة الابدية غير الفاسدة والخالدة، وخامساً ليورثنا الملكوت السماوي فنصبح في الرؤيا الطوباوية لله، وسادساً ليعيد الخراف الضالّة الى القطيع، وسابعاً ليشفي جراحاتنا ويغفر آثامنا، وثامناً ليبيد الخطيئة ويبطل سلطة الموت، وتاسعاً ليضع حداً لنفينا في هذه الدنيا وننتصر على الشيطان وحيله وخزعبلاته، وعاشراً من اجل خلاصنا الأبدي، لأنه هو المخلّص والفادي. فالمسيح اذن، في نظر ايريناوس، هو الذي «يوحّد كلّ شيء فيه، سواءٌ الأشياء التي في السموات والتي على الأرض» (رسالة القديس بولس الى أهل أفسس، ١، ١٠). وهذا التوحيد يعني اعادة بنية الانسانية وتجديدها

حسب المخطط الالهي الاساسي من خلال الكلمة المتجسّد الذي هو ملء الكمال الالهي. وفي هذا المعنى يقول: «وبما ان المسيح هو الوسيط بين الله والبشر، اراد ان يعيد الاثنين الى الصداقة الاولى والى الوفاق كي يقدّم الانسان لله والله للانسان» (ضدّ الهرطقات، ٣، ١٨، ٧).

ولكن، اذا كان التجسّد هو محور لاهوت ايريناوس، فهذا لا يعني ان آلام المسيح وموته على الصليب تأتي في الدرجة الثانية. إنه، بالعكس، يشدّد على آلامه وصلبه وموته كما يشدّد على التجسّد نفسه، فهم جميعاً وحدة لا تتجزّأ في طبيعته الالهية والانسانية على السواء. وبهذا المعنى يقول: «إن ابن الله أتى ليتحمّل الآلام» (توضيح التعليم الرسولي، ٨٦). فالتجسّد والآلام هما، إلى حدّ ما، مرادفان. ولكي يؤكد على ذلك، فانه يعدّد ايضاً الاسباب التي من اجلها تألم، كما عدّد الأسباب التي من اجلها تجسّد، فيقول: إن المسيح تألم، اولاً، وسفك دمه ومات من اجلنا، وثانياً من اجل ان يتحدنا بالله ويصالحنا معه ويجعلنا اهلاً لمرضاته: «إن ابن الله قد اتى ليتحمّل الآلام، وليصالحنا مع الله، ولكي يجعلنا اهلاً لمرضاته» (توضيح التعليم الرسولي، ٨٦)، وثالثاً من اجل خلاصنا وافتدائنا بواسطة دمه وموته الارادي، ورابعاً من اجل ابادة الموت ولقيامنا معه، وخامساً ليعلّمنا ان نتألم مثله

ونحارب وننتصر على عدونا الشيطان، وسادساً لينهي منفانا الذي كان نتيجة خطيئة آدم، وسابعاً لكي يوحّد كلّ شيء فيه ويجدد انسانيتنا حسب المخطط الالهي الموضوع من اجل خلاصنا. فبموته على الصليب افتدانا وعلّمنا الطاعة لله حتى ولو طلب ذلك اهراق آخر نقطة دم من دمنا. «وبهذه الطاعة، يقول ايريناوس، التي مارسها حتى الموت، وهو معلّق على خشبة، قد كفّر عن التمرّد القديم الذي سببته خشبة الفردوس... وبواسطة كلمة الله كل شيء اصبح تحت تأثير التدبير الفدائي، وابن الله قد صلب من اجل كلّ شيء وهو يرسم اشارة الصليب على كلّ شيء» (توضيح التعليم الرسولي، ٣٤). فالخلاص يأتي من الصليب. وبما ان الموت على الصليب هو تضحية، فالمسيح قدّم ذاته ضحيّة وهو الكاهن المقدّم في الوقت نفسه. إنه هو الاله والانسان الذي أصبح الوسيط والفادي والمخلص بواسطة آلامه وموته التي احتملها من اجلنا ومن اجل خلاصنا. والدَيْن، الذي فرضته خطيئة آدم على الانسان بالنسبة الى الله، قد دفعه المسيح بدمه، لأن الانسان نفسه غير قادر على وفائه، حتى بجميع الوسائل التي كان بامكانه ان يستعملها. «إنه (أعني المسيح) رجل آلام، كما يقول النبي أشعيا، وقد فعل ارادة الآب السماوي بموته، من اجل خلاصنا» (توضيح التعليم الرسولي، ٦٨ ـ ٦٩). وتعليقاً على قول ايريناوس هذا، يقول اللاهوتي

«شين» (Chaine): «من تأكيدات ايريناوس نستنتج ان تضامن المخلص، المسيح الاله، مع جنسنا البشري، قد دفعه الى ان يقدّم لله، ابيه السماوي، الكفارة عن ذنوبنا وخطايانا. ولكن القديس ايريناوس، الذي لا يحلّل عقلياً الأمر بابعاده جميعها، قد اكتفى بالقول ان المسيح أخذ مكاننا وقدّم الكفارة الحقيقيّة عنا. واذا وضعنا هذه الحقيقة انطلاقاً من ان الانسان لم يكن قادراً على صنع خلاصه، فهكذا نقبل بطرح ايريناوس الذي لا يشرح لنا عقلياً كيف ان المسيح كفّر عنا» (شين: المسيح الفادي في لاهوت ايريناوس، ١٩١٩، ص ٨٧ ـ ٨٨). وبما ان الخطيئة هي، في نظر ايريناوس، جحود نعمة الله وعدم طاعته، فان المسيح كفّر بطاعة كاملة لأبيه السماوي، تمثلت بموته على الصليب، كما بطاعته في الصحراء حيث انتصر ثلاث مرات على الشيطان المجرّب، خاضعاً لارادة الله كلياً. وكما ان الخاطىء قد وضع ديناً عليه لله من مجرّد خطيئته، كذلك خسر الخيرات السماوية التي اعطاه إياها الله في الفردوس. فالمسيح الذي كفّر عن الانسان أعاد اليه ايضاً هذه الخيرات من خلال تجسّده وموته. وبهذا المعنى يقول ايريناوس: «الى الذين يؤمنون بالله، ويحبّون المسيح، ويعيشون في القداسة والعدل والصبر، أعطى الله الحياة الابدية بواسطة قيامة الموتى، وذلك نتيجة استحقاقات الذي مات وقام، يسوع المسيح، الذي

اعطاه الآب الملك على الكون والسلطة ليحاكم الأحياء والاموات» (توضيح التعليم الرسولي، ٤١). وهكذا، يقول ايريناوس، باتحادنا بالله بواسطة المسيح، يخلص جسدنا، ويكون لنا الخلود وعدم الفساد، ونستعيد صورة الألوهة التي أعطانا اياها الله يوم خلقنا، ونصبح من جديد أبناء الله بالتبنّي. والانسان، الذي أصبح تحت سلطة الشيطان وعبداً له من مجرّد سقوطه في الخطيئة، حرّره المسيح بواسطة الفداء، وأعاده الى حضن الآب السماوي الذي قبله بحلمه وعطفه ومحبته وحكمته. وبهذا المعنى يقول اللاهوتي «غالتييه» (Galtier) معلقاً على كلام ايريناوس: «إله حنون وعطوف، ومخلوقات حرّة، هذا ما يعود إليه تاريخ التطوّر الأدبي والديني في العالم. فالتاريخ، في نظر ايريناوس، هو تاريخ العطف الالهي على الخليقة جمعاء» (غالتييه: الأسقف الملفان: القديس ايريناوس اسقف مدينة ليون، في مجلة دراسات، باريس، ١٩١٣، الجزء ١٣٦، ص ٢١). ولا نجد محبة الله وعطفه ورحمته ورأفته وصبره وحلمه وكبره واضحة جميعها إلاّ في رفع الانسان وخلاصه بعد سقطته. والله، لأنه أحبَّ الجنس البشري، أخذ على عاتقه ان يثأر له من الشيطان الذي استعبده بواسطة تجسّد الكلمة الالهي. وبهذا المعنى يقول ايضاً ايريناوس: «المسيح جدّد الانسان كما خلقه الله اولاً على صورته ومثاله باعادة العطف والعدل إليه. فبالعدل رفض الهرطقات ونكران

الله، وبالعطف خلص نفسه بواسطة دم المسيح. نحن لم نعطه شيئاً، وهو لا ينتظر منّا شيئاً كأنّه بحاجة الى ذلك، بل نحن الذين بحاجة إليه باتحادنا به. لذلك أجزل عطاءه لكي يجمعنا في حضن الآب» (ضدّ الهرطقات، ٥، ١١، ١). وإن عطفاً كهذا يوصل الى تمجيد الله، لا لأن الله هو بحاجة إلينا لكي يتمجّد، بل لأن الانسان المخلّص من الله يمجّده بطاعته له، وباعترافه بفضله وبنعمته، وبمعرفته الحقيقية له. فالخلاص هو نتيجة حبّ الله للانسان، والله بذلك يكون قد ملك حبّ الانسان له، مهيّئاً له المجد الذي يفيض عليه من مجد الله بالذات. وكما عطف الله قد أوصل الانسان الى المجد، كذلك عدله لأنه (اعني الله) لم يرد ان يبقى الموت مسيطراً على الجنس البشري، بل ان تكون له الحياة، لأنه خلق الانسان للحياة لا للموت. فالحياة هي انتصار لله وللانسان، وامّا الموت فهو انتصار للشيطان. فايريناوس يقول: «إن التدبير الخلاصي للانسان يكتمل حسب ارادة الآب بحيث ان الله لا يغلب، وإن صنيعه لا يكون فيه عيب. فاذا كان الانسان، الذي خلقه الله للحياة، قد ألقي للموت كلياً، فان الله يكون قد غُلب، وشرّ الحيّة يكون قد انتصر على الارادة الالهية. ولكن الله لا يغلب، وهو القدير على كل شيء. لذلك، بواسطة آدم الجديد، قد كبّل الشيطان، وأحيا الانسان الذي كان ميتاً» (ضد الهرطقات، ٣، ٣٣، ١ ـ ٢). وان يتحرّر

آدم القديم وابناؤه، وان يخلصوا ويعودوا الى الحياةالتي ارادها لهم الله، فهذا كمال التدبير الالهي الخلاصي.

هناك البعض من اللاهوتيين يعتقد ان ايريناوس، في ما كتبه عن سرّ الفداء، يتحدّث عن اتفاق بين الله والشيطان حول خلاص البشرية، بنوع ان الله وعد الشيطان باعطائه نفس ابنه بدل النفوس التي سقطت في حبائله ويريد تخليصها. فاللاهوتي «ساباتييه» (Sabatier) يقول مثلاً: «إن ايريناوس يتصوّر انه تمّ اتفاق تبادل بين الله والشيطان... فالله يعطيه نفس ابنه كفارة عن النفوس البشرية» (ساباتييه: عقيدة التكفير وتطوّرها التاريخي، باريس، ١٩٠٣، ص ٤٧ ـ ٤٩). ويكمل قائلاً: «ان الشيطان وقع في الفخ، وقبل الرهان، فترك النفوس البشرية ليحصل على نفس ابن الله، لكنه لم يكن قوياً الى حدّ المحافظة عليها اذ ان ابن الله خرج من الجحيم بعد ان كسر ابوابه. لذلك لم يبق الاتفاق ممكناً اذ ان الشيطان غشّ نفسه وانقلبت الأمور عليه» (المصدر نفسه). كذلك هناك عدد كبير من النقّاد الذين أتوا بعد ايريناوس يعتقد ان هذا الأخير هو صاحب عقيدة الفدية التي أخذوا بها: فموت المسيح، في نظرهم، هو فدية مدفوعة للشيطان لتخليص البشرية المستعبدة بنوع ان الشيطان نفسه اعتبر ان العدل تمّ بينه وبين الله وحصل على حقوقه. وهذه العقيدة او التعليم يعتبر ان الشيطان له

حقوق، غير ان ايريناوس نفسه يؤكد على ان الاهانة التي اهان بها الله آدم الأوّل قد كفّر عنها آدم الثاني بموته، ولذلك لم يعد للشيطان من حقوق يطالب بها.

يقول اللاهوتي «ريڤيير» (Rivière) في كتابه «لاهوت الفداء»: «إن مفهوم حقوق الشيطان لم يكن محصوراً بواحدٍ من آباء الكنيسة، بل نجده عند كثيرين منهم. والقديس ايريناوس هو اوّل من تحدّث عن حقوق للشيطان على الانسان، وعلى هذا الشيطان ان يعامل بالعدل إذ ان الله قاصصه على فعلته التي أبعد بها آدم وحواء عن الفردوس. امّا الذين اعتبروا ان ايريناوس تكلّم عن اتفاق بين الله والشيطان من خلاله يسلم الله نفس ابنه إليه بدل نفوس البشر، فذلك ليس صحيحاً، والاجتهاد هنا ليس ممكناً، لأن الشيطان، في نظر ايريناوس، هو المغلوب من المسيح الفادي» (ريڤيير: لاهوت الفداء، باريس، ١٩٠٥، ص ٣٧٣ ـ ٣٨٦). وبالمعنى نفسه يقول ايضاً اللاهوتي «غالتييه» (Galtier): «إن القديس ايريناوس يتحدّث عن عدل فداء المسيح. اما بالنسبة الى الشيطان، فهذا العدل هو واقعي وسلبي: فالمسيح، بتخليصه البشرية من ظلم الشيطان، قد وضع حداً لمطالبة السارق بما سرقه كأنه حق له. لذلك يجب عدم التكلّم هنا عن المراعاة والتعويض او الاقناع. فبين المسيح والشيطان لا يرى ايريناوس علاقة سوى علاقة

السيد بالعبد الذي هو لصٌ سارق. ففكرة تعويض او مراعاة او اقناع ليست واردة كلياً في لاهوت ايريناوس» (غالتييه: الفداء وحقوق الشيطان عند القديس ايريناوس، باريس ١٩١١، ص ١ ـ ٢٤). واذا كان هناك من توافق بين الله والشيطان، فهذا التوافق هو توافق ايجابي بمعنى ان الله ترك للشيطان دوراً في مسيرة التدبير الالهي للفداء إذ ان الموت هو مملكة الشيطان، والمسيح، لكي يفدي البشر، قد مات من اجل خلاصهم. فالموت الجسدي هو، مادياً، تحت سلطة الشيطان. لذلك، فموت المسيح هو، نوعاً ما، تحت سلطة امير الموت. ولكن، حتى هذه الفكرة الاجتهادية، في لاهوت ايريناوس، لم يقبلها إلاّ القليلون من اللاهوتيين، اما الآخرون فيعتبرون ان ايريناوس هو بعيد كلّ البعد عن ذلك، وليست هذه فكرته الاساسية. فانكسار الشيطان كان البرهان الكافي على عدل الله بالنسبة إليه، ولا حقوق له على الانسان حتى ولو كان الموت تحت سلطته.

ولكن، السؤال الذي يجب ان يطرح بعمق هو التالي: هل إن خطيئة آدم هي التي دفعت المسيح، في نظر ايريناوس، الى التجسّد والموت فداءً عن الجنس البشري، أم هناك اسباب اخرى؟ في الواقع، إن ايريناوس نفسه لا يتناول هذا الموضوع مباشرة، ولكن

اللاهوتيين يعيدون اسباب التجسّد عنده الى ثلاثة: السبب الاول هو تمجيد الله، والسبب الثاني هو خير الانسان، والسبب الثالث هو الانتصار على الشيطان. ويقول اللاهوتي «اوكسانهام» (Oxenham) إنه لم يكن بالضرورة ان يخطأ آدم ليتجسّد المسيح إذ إن خير الانسان يفرض إعلان المسيح تعاليمه له ليتقدّس أكثر، وضرورة التجسّد من اجل تأليه الانسان ورفعه الى الله، خصوصاً الانسان الفرد. وحتى ان التجسّد لم يكن مرتبطاً كلياً بطبيعة سقطة آدم لأن هذا التجسّد هو من ضمن مخطّط التدبير الالهي. وبما ان الله اراد لابنه ان يكون مخلصاً فلقد اعطاه الانسان ليخلّصه، وهو (أعني المسيح) ليس مثال البشرية المتجدّدة وحسب، بقدر ما هو مثال البشرية الكاملة بالله. غير ان ايريناوس يستدرك ويقول: لو لم يكن الجسد بحاجة الى خلاص، فان المسيح لم يتجسّد. فالتجسّد والفداء لا ينفصلان. والانسان، بذاته، لم يكن قادراً على الحصول على التبنّي الالهي له، وعلى الخلود وعدم الفساد، لو لم يتجسّد الكلمة الالهي ليعطيه هذه البنوّة، وهذا الخلود، وعدم الفساد الدائم. إنها عودة الى حالته الاولى التي كان فيها في الفردوس، والتي اعادها اليه المسيح بعد ان كفّر عنه لأنه لم يكن قادراً على التكفير بذاته. إنه (أعني الانسان) لم يكن قادراً على العودة بقواه الذاتية، رغم ان ايريناوس يؤكد على ان الله كان بامكانه ان يستعمل طرق اخرى

لخلاصه. وبهذا المعنى يقول: «بواسطة كلمة الله كلّ شيء كان تحت تأثير التدبير الفدائي، وابن الله قد صلب من اجل كلّ شيء راسماً اشارة الصليب على كل شيء. لذلك كان حقاً وضرورياً ان تشارك الاشياء الظاهرة بصليبه عندما اصبح منظوراً منها» (توضيح التعليم الرسولي، ٣٤).

وباختصار، فان محبّة الله وحكمته هما اللذان دفعاه لتخليص الانسان كي يعود الى حالته الاولى، أعني حالة البرارة والسعادة الدائمة. فتبنّي الله للانسان حدّد مسيرة الخلاص من خلال تدبيره الازلي، وهو ايضاً الذي جعل الاقنوم الثاني يتجسّد ويموت على الصليب فداءً عن الجنس البشري. ومهما كانت الاجتهادات فان ايريناوس يبقى اللاهوتي الأهمّ، لاهوتيّ التجسّد والفداء، في نهاية القرن الثاني المسيحي الذي هو قرن تثبيت العقيدة المسيحية على أسس لاهوتيّة واضحة.

٣
العذراء مريم في لاهوت ايريناوس

يقول اللاهوتي «داليس» (A. d'Alès): «كما ان القديس ايريناوس هو اول لاهوتيّي الفداء، كذلك هو ايضاً اوّل لاهوتيّي أمومة العذراء». وفي الواقع، فان مقارنة المسيح بآدم التي أعلنها القديس بولس، ومقارنة العذراء بحوّاء التي تكلّم عنها القديس «يوستينوس»، قد أثرت ايجاباً على فكر ايريناوس بحيث أنه كرّس قسماً كبيراً من دراساته ومؤلفاته لشرح امومة العذراء لله وامومتها للجنس البشري. وبهذا المعنى يقول: «إننا نجد رابطاً عميقاً بين العذراء مريم المطيعة والقائلة: «هذه أمتك يا سيدي، فليكن لي حسب قولك»، وحواء المتمرّدة وهي لم تزل عذراء. فاذا كانت حواء، زوجة آدم، وهي عذراء... قد خالفت وصية الله وأصبحت ، بالنسبة الى نفسها والى الجنس البشري، سبب الموت، فان العذراء، وهي زوجة رجل معداً لها ومع ذلك عذراء، قد أصبحت، بفضل طاعتها، بالنسبة الى نفسها والى الجنس البشري، سبب الخلاص. وبسبب هذا التشابه فان الشريعة القديمة تسمّي المرأة متحدة بالرجل، ولو انها ما برحت عذراء، زوجة الذي قبلها، مظهرةً (من خلال هذه المقارنة) ان الحياة تتجه صعوداً من

مريم الى حواء، إذ لا يمكن حلّ ما هو مربوط إلاّ اذا نقضنا، بالاتجاه المعاكس، مجموعة العقد، بحيث ان العقد الاولى تُحلُّ بفضل العقد الثانية، او بتعبير آخر إن العقد الثانية هي التي تحرّر العقد الاولى. ويحصل هكذا أن الشبكات الاولى (العقد) تحلّ بالثانية، او ان الثانية تساعد على تحرير الاولى. لذلك قال السيد: «الأولون يصبحون آخرين، والآخرون أوّلين». والنبي (متوجهاً الى المسيح) يردّد المعنى ذاته بهذه الكلمات: «في مقابل الآباء قد ولد لك أبناء»، ذلك ان السيّد، المولود من آبائنا (المولود الاول من بين الاموات) قد حضن آباءه الأقدمين وجعلهم يولدون مجدّداً لحياة الله، فأصبح بذلك رأس الأحياء كما ان آدم اصبح رأس الاموات. وللسبب نفسه بدأ لوقا سلالته انطلاقاً من السيد صعوداً الى آدم كي يثبت أن آباءنا ليسوا هم الذين أعطوا الحياة له، بل هو الذي جعلهم يولدون مجدّداً في انجيل الحياة. وعلى هذا النحو، فان العقدة التي ربطتها حواء بمخالفتها، هذه العقدة حلّتها مريم بطاعتها: اي ان ما ربطته حواء البتول بجحودها وكفرها قد حلّته مريم العذراء بايمانها وطاعتها» (ضدّ الهرطقات، ٣، ٢٢، ٤).

من هذا النصّ الواضح نستنتج، بالنسبة الى ايريناوس، ان عمل الفداء يتبع مراحل سقوط الانسان.

فمقابل كل خطوة خاطئة خطاها الانسان الذي غرّه الشيطان يطلب الله تعويضاً كي يؤمّن انتصاراً كاملاً على المغوي المضلّل، وبالتالي كي يكون للبشرية تجديداً كلياً بآدم الجديد. ولكن، بما ان المرأة الاولى كانت متورطة هي ايضاً في السقوط بسبب تمرّدها، فان الارتقاء يجب ان يبدأ ايضاً بامرأة مطيعة هي العذراء. وبما انها أعطت الحياة لآدم الجديد، فالعذراء مريم اصبحت حواء الحقيقية، الأم الحقيقية للبشر وسبب الخلاص. وهكذا تكون مريم المحامية عن حواء. وبهذا المعنى يقول ايريناوس ايضاً: «اذا كانت حواء الاولى تمرّدت على الله، فالثانية (مريم) على عكسها تماماً قد أطاعت الله كي تكون (العذراء مريم) المحامية والمدافعة عن العذراء حوّاء. وكما ان الجنس البشري قد أخضع للموت بفعل عذراء، فقد تحرّر من الموت ايضاً بفعل عذراء، بحيث ان عصيان عذراء عوّضت عنه طاعة عذراء اخرى» (ضدّ الهرطقات، ٥، ١٩، ١). ثم يذهب الى أبعد بالمقارنة بين مريم وحواء مؤكداً على أن مريم هي الأم الجديدة للبشرية، فيدعوها «ثدي» الانسانية، حاصراً الامومة الكونية فيها. فهي ام الله، وام البشرية على حدٍّ سواء. وهذا ما سنراه بالتفصيل.

أ ـ مريم ام الله.

لقد حاول ايريناوس بكل جهده، رداً على الهرطقة الدوسيتيّة الغنوصية التي ادّعت ان يسوع لم يكن له إلاّ مظهر الجسد، أن يؤكد على أمومة مريم لله. وهو في ذلك يستند الى براهين الكتاب المقدس، والى التدبير الفدائي الذي يؤكد على أن المسيح ولد من مريم، والى ايمان الكنيسة التقليدي (ضدّ الهرطقات ٣، ٢٢، ١ ـ ٢؛ ٤، ٣٣، ٢؛ ٣، ١٨، ٧؛ ٢١، ١٠؛ ٢٢، ١؛ وتوضيح التعليم الرسولي، ٣٣، ٣٨، ٣٩). وفي الواقع، فان ايريناوس يردّد دائماً ان المولود من العذراء هو الله، وذلك يعني ان العذراء هي ام الله. ورغم ان كلمة «ام الله» (Theotokos) غير واردة بوضوح عنده، فان كلمات كهذه: «إن ابن الله ولد من عذارء»، «والمسيح المولود من مريم هو عمانوئيل»، «وليس هناك سوى يسوع مسيح واحد وهو إلهنا الذي ولد من مريم» (ضدّ الهرطقات، ٣، ١٦، ٢ ـ ٣)، ليست سوى تأكيد واضح على أمومة مريم العذراء للمسيح يسوع الاله. وهذه الأمومة لم تمنع مريم من ان تكون عذراء الى الأبد. فايريناوس يعود الى النبي أشعيا في الفصل السابع، العدد ١٤، حيث يقول: «فلذلك يؤتيكم السيد نفسه آية ها إن العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمّانوئيل». وانطلاقاً من هذه الآية يؤكد على ان الولد

هو إلهي، والحبل به ايضاً هو إلهي، وطريقة ولادته هي ايضاً إلهيّة. وايريناوس يعتبر ان هذه الولادة تندرج في سياق العمل الألوهي كما تجسّد المسيح وآلامه وقيامته من بين الأموات وصعوده الى السماء بالجسد (ضدّ الهرطقات، ١، ١٠، ١). ولكن، ربّما هناك كلمات وردت عنده يستخلص منها ان ولادة المسيح كانت كولادة جميع البشر، ولكن الذي يطلع على لاهوت الآباء جميعاً في القرون الاولى للمسيحيّة حيث يؤكدون في كتاباتهم على ان ولادة المسيح هي ولادة إلهية، لا يعود يشكك بصحة ما قاله ايريناوس حول ذلك، وهو ان هذه الولادة هي إلهية، الأمر الذي يستنتج منه ان العذراء مريم هي أمّ الله.

ب ـ مريم ام البشرية

هناك نصوص ثلاثة يقارن فيها ايريناوس بين مريم وحواء تستنتج منها امومة مريم للبشرية جمعاء. فكما ان المسيح هو آدم الجديد الذي جدّد البشرية في شخصه بعد خطيئة آدم الاول، كذلك مريم هي حواء الجديدة التي شاركت المسيح في الخلاص. إن طهارتها هي برهان واضح على شراكتها في رسالة آدم الجديد. وبهذا المعنى يقول: «كما ان آدم الاول قد اتخذ مادته من الأرض الجديدة التي كانت لم تزل عذراء لأن الله لم

يكن أنزل مطره والانسان لم يكن بعد قد عمل فيها، كذلك الكلمة، الذي اراد ان يخلّص آدم من خلال ميلاده من مريم التي كانت عذراء، قد اختار بحق ولادة آدم»(ضد الهرطقات، ٣، ٢١، ١٠؛ وتوضيح التعليم الرسولي، ٣٢). زيادة على ذلك، فان مريم قد شاركت حقاً في العمل الخلاصي، لا كأداة مادية لهذا الخلاص، ولكن بشراكة فعلية، كما يؤكد ذلك ايضاً «يوستينوس الروماني» و «ترتوليانوس». ويشرح ذلك ايريناوس، قائلاً: «كما ان حواء، التي تزوجت آدم وبقيت عذراء، قد كانت سبب الموت للجنس البشري من خلال عدم طاعتها لله، هكذا مريم التي كان لها زوج وهي عذراء قد كانت سبب الخلاص للجنس البشري من خلال طاعتها لله» (ضدّ الهرطقات، ٣، ٢٢، ٤). وهكذا فان «السيد قد أصبح رمز الأحياء كما ان آدم اصبح رمز الاموات. وان عقدة عصيان حواء قد حُلّت بطاعة مريم، اذ ان العذراء حواء قد كبّلت من مجرّد عدم أمانتها، والعذراء مريم قد حرّرتها (لحواء) من خلال ايمانها. وكما ان الجنس البشري أصبح تحت حكم الموت بواسطة عذراء (حواء)، كذلك أصبح في حكم المخلص بواسطة عذراء (مريم). وهكذا فان كفّتي الميزان في توازن: فالعصيان البتولي قد قابلته طاعة بتولية، وخطيئة الانسان الاوّل قد عوّض عنها من آدم الجديد (المسيح)، وحكمة الحيّة قد غُلبت ببساطة

الحمامة، وقيود الموت قد حُلّت بعد ان قيّدت البشرية» (ضدّ الهرطقات، ٥، ١٩، ١). فمريم اذن، بما لها من دالّة على ابنها، تعتبر المحامية والمدافعة عن حوّاء الاولى وعن الجنس البشري التي هي أمّه طبيعيّاً. إنها أنجدت حواء بعد ان هدمت هذه الاخيرة العمل الخلاصي بعصيانها. إنها (أعني مريم) قد جدّدتنا بابنها يسوع كما تجدّدنا الكنيسة به ايضاً. ويزيد ايريناوس قائلاً: «في المسيح، المولود من مريم، الانسانية جمعاء قد ولدت. وبنتيجة التضامن القائم بين المسيح والبشرية، فان الحبل به ومولده هما تجديد لهذه البشرية، والأم التي ولدتهما جدّدتهما فيها... وبقبولها أن تصبح أم آدم الجديد قد ولدت للحياة جميع البشر معه وفيه». وبهذا المعنى يقول اللاهوتي «دالس»: «ان ايريناوس هو اوّل من أطلق اللاهوت المريمي كما كان اوّل من اطلق اللاهوت الفدائي» (دالس: ايريناوس، القاموس الدفاعي، الجزء الثالث، ١٦٠).

وباختصار، فان مريم العذراء هي ام الله وام البشرية على حدّ سواء. نعم، لقد سبق ايريناوس كثيرون من الآباء في اعلان ذلك. ولكن فضله هو أنه حدّد الأطر اللاهوتية والأسس العقائدية من خلال مؤلفاته التي كانت الأساس في تطوّر اللاهوت المسيحي في القرن الثاني الميلادي. من هنا اعتبرته الكنيسة المرجع المهمّ في

هذا المجال، واستندت الى تعاليمه في توضيح ما كان سبب خلاف بين المسيحيين في القرنين الاولين. لذلك هو، دون منازع، أحد أهمّ لاهوتيّي اللاهوت الفدائي واللاهوت المريمي الذي تطوّر بعده، ولكن انطلاقاً من المعطيات التي طرحها، استناداً الى الكتاب المقدس والى تقليد الكنيسة الجامعة.

٤
الكنيسة في لاهوت ايريناوس

كما ان موقف الغنوصيين من ألوهة المسيح وناسوته، وموقفهم من أمومة العذراء لله، كانا الدافع لايريناوس ليجيب عليهم ويحدّد لاهوت التجسّد والفداء، واللاهوت المريمي، كذلك موقفهم من كنيسة المسيح دفعه ليتكلّم باسهاب عنها وليكون مرجعاً في رؤياه حول قداستها ووحدتها وجامعيتها ورسوليتها وتراتبيتها واولوية رئيسها وعلاقتها بالدولة. فالغنوصيون يرفضون الكتب المقدسة والتقاليد معتبرين أنهم وحدهم المرجع، وأنهم فوق الرسل والكهنة، وأن الروح لا يتكلم إلاّ فيهم، وأن العقيدة لا تنبع إلاّ من تحاليلهم العقلية، وأن التجدّد في هذه العقيدة يجب ان يكون الغاية الاساسية لأن الروح يوحي بالأمور تباعاً وليس مرّة واحدة. ورداً على ذلك يقول ايريناوس: إن التبدّل والتقلّب وعدم الثبات هي جوهر العقيدة الغنوصية. إنهم (أعني الغنوصيين) سفسطائيون دائماً، محكومٌ عليهم بالتغيير، لا يثبّتون عقيدتهم على اساس، ويسيرون في رمال متحرّكة. من هنا تحاملهم على الكنيسة، مهشّمين تعاليمها، مبتعدين عنها، محتقرين أبناءها الملتزمين، ناعتين اياهم بعامة الشعب التي لا تفهم شيئاً من الحقيقة،

بينما هم وحدهم الروحانيون والكاملون والزرع الالهي المختار. لذلك كان من الواجب الوقوف في وجههم واعلان حقيقة الكنيسة للعالم أجمع كي لا ينغرَّ ولا يؤخذ بتعاليمهم. ونثبت هنا جوهر تعاليم ايريناوس حول الكنيسة.

أ ـ قداسة الكنيسة

إن القداسة هي ميزة الكنيسة الحقيقيّة (ضدّ الهرطقات ١، ٣٠، ٢)، والكهنة عليهم ان يكونوا قديسين في الدرجة الاولى (ضدّ الهرطقات، ٤، ٢٦، ٤). وبالنسبة الى الكنيسة الحقيقيّة فان «المحبة هي أثمن من جميع العلوم، وأمجد من النبوءات، وأفضل من جميع المواهب الالهية» (ضدّ الهرطقات، ٤، ٢٣، ٨). وعندما توجد المحبة فان جميع المواهب تكون حاضرة. وبما ان الكنيسة تحبّ الله فانّنا نجد فيها شهداء يقدّمون ذواتهم للموت بدافع هذه المحبّة، كما أنه فيها وحدها صنع عجائب. الغنوصيون يلجأون الى الرقية والسحر ليوهموا الناس ولينالوا حظوة في أعينهم مثل «سيمون الساحر» و «ماركوس» و «بازيليدوس» و «كربوكراتوس» وغيرهم، بينما أعاجيب الكنيسة هي حقيقيّة ومفيدة ورحومة ومجانيّة (ضدّ الهرطقات، ٢، ٣١، ٣). الغنوصيون، الذين يعتبرون أنفسهم روحانيين

وغير ملوّثين بالأثم، هم وحدهم الذين يأمرون بالشرّ، بينما أبناء الكنيسة الحقيقيين يخافون الخطيئة، ليس بالفعل وحسب، بل ايضاً بالفكر وبالكلمة. من هنا قداسة الكنيسة، ومن هنا الاعمال السماوية الخارقة التي تحصل فيها. فالله يجازي خيراً على القداسة، والقداسة هي سرّ هذه الكنيسة التي أسسها المسيح وتركها بعده ترعى أبناءه.

ب ـ وحدة الكنيسة

الكنيسة هي واحدة في ايمانها وتنظيمها. وبعكس الغنوصيين الذين لم يقدّموا عقيدة واحدة ومنسجمة بل آراء غير مترابطة ومبنيّة على عواطفهم البشرية، فان الكنيسة تعلّم ايماناً واحداً حتى ولو كانت منتشرة في العالم أجمع. ليس لها سوى «قلب واحد، ونفس واحدة، وصوت واحد، وفم واحد، إنها الشمس للكون كله، كما تبشيرها بالحقيقة الواحدة» (ضدّ الهرطقات، ١، ١٠، ٢؛ ٣، ٢٤، ٢؛ ٥، ٥، ٢). إنها (أعني الكنيسة) جسم منظّم، وصورة عن جسد المسيح الحقيقي. والويل للهراطقة الذين ليس لهم حبّ الله، بل ينظرون الى مصالحهم وليس الى وحدة الكنيسة، وهكذا يقتلون جسد المسيح (ضدّ الهرطقات، ٤، ٣٣، ٧ ـ ٨). الهراطقة هم عميان، يتركون تعاليم الكنيسة،

ويغرقون في عقائد متغيّرة ومتبدّلة ومتناقضة. لذلك يجب ان نهرب منهم ونلجأ الى الكنيسة، الفردوس الأرضي الذي أراده الله لابنائه في هذه الدنيا (ضد الهرطقات، ٥، ٢٠، ٢؛ توضيح التعليم الرسولي، ٢).

ج ـ جامعية الكنيسة

إن تعبير «الكنيسة الجامعة» الذي نقرأه عند القديس «اغناطيوس الانطاكي» والقديس «پوليكربوس» نجده عند القديس ايريناوس بوضوح أكثر، رغم ان الترجمة اللاتينية لمؤلفاته لم تشدّد على ذلك. ففي الفصل العاشر، العدد الاول، من الكتاب الاول «ضدّ الهرطقات» يتكلّم عن جامعية الكنيسة المزدوجة في الزمان والمكان. ولقد تبيّنت هذه الجامعية في العهد القديم إذ إنها شبّهت بكرمة الجنس البشري حيث زرعها الله من خلال زرع ابراهيم (ضدّ الهرطقات، ٤، ٨، ١؛ ٤، ٣٦، ٢؛ ٥، ٣٤، ١). فالكنيسة، المنشرة في العالم، تتكلّم جميع لغات الأرض بايمان واحد وتقليد واحد. وما عقيدتها سوى عقيدة واحدة، ظاهرة لجميع البشر، بعكس الغنوصيين الذين يعتبرون ان هناك أموراً في العقيدة يجب ان لا تقال للجميع. وليست الكنيسة منغلقة على ذاتها، او هي كنيسة تشبه في طقوسها بعض الطقوس السريّة، لكنّها تبشر بتعاليم المسيح في العالم

وغير ملوّثين بالأثم، هم وحدهم الذين يأمرون بالشرّ، بينما أبناء الكنيسة الحقيقيين يخافون الخطيئة، ليس بالفعل وحسب، بل ايضاً بالفكر وبالكلمة. من هنا قداسة الكنيسة، ومن هنا الاعمال السماوية الخارقة التي تحصل فيها. فالله يجازي خيراً على القداسة، والقداسة هي سرّ هذه الكنيسة التي أسسها المسيح وتركها بعده ترعى أبناءه.

ب ـ وحدة الكنيسة

الكنيسة هي واحدة في ايمانها وتنظيمها. وبعكس الغنوصيين الذين لم يقدّموا عقيدة واحدة ومنسجمة بل آراء غير مترابطة ومبنيّة على عواطفهم البشرية، فان الكنيسة تعلّم ايماناً واحداً حتى ولو كانت منتشرة في العالم أجمع. ليس لها سوى «قلب واحد، ونفس واحدة، وصوت واحد، وفم واحد، إنها الشمس للكون كله، كما تبشيرها بالحقيقة الواحدة» (ضدّ الهرطقات، ١، ١٠، ٢؛ ٣، ٢٤، ٢؛ ٥، ٥، ٢). إنها (أعني الكنيسة) جسم منظّم، وصورة عن جسد المسيح الحقيقي. والويل للهراطقة الذين ليس لهم حبّ الله، بل ينظرون الى مصالحهم وليس الى وحدة الكنيسة، وهكذا يقتلون جسد المسيح (ضدّ الهرطقات، ٤، ٣٣، ٧ ـ ٨). الهراطقة هم عميان، يتركون تعاليم الكنيسة،

ويغرقون في عقائد متغيّرة ومتبدّلة ومتناقضة. لذلك يجب ان نهرب منهم ونلجأ الى الكنيسة، الفردوس الأرضي الذي أراده الله لابنائه في هذه الدنيا (ضد الهرطقات، ٥، ٢٠، ٢؛ توضيح التعليم الرسولي، ٢).

ج ـ جامعية الكنيسة

إن تعبير «الكنيسة الجامعة» الذي نقرأة عند القديس «اغناطيوس الانطاكي» والقديس «پوليكربوس» نجده عند القديس ايريناوس بوضوح أكثر، رغم ان الترجمة اللاتينية لمؤلفاته لم تشدّد على ذلك. ففي الفصل العاشر، العدد الاول، من الكتاب الاول «ضدّ الهرطقات» يتكلّم عن جامعية الكنيسة المزدوجة في الزمان والمكان. ولقد تبيّنت هذه الجامعية في العهد القديم إذ إنها شبّهت بكرمة الجنس البشري حيث زرعها الله من خلال زرع ابراهيم (ضدّ الهرطقات، ٤، ٨، ١؛ ٤، ٣٦، ٢؛ ٥، ٣٤، ١). فالكنيسة، المنشرة في العالم، تتكلّم جميع لغات الأرض بايمان واحد وتقليد واحد. وما عقيدتها سوى عقيدة واحدة، ظاهرة لجميع البشر، بعكس الغنوصيين الذين يعتبرون ان هناك أموراً في العقيدة يجب ان لا تقال للجميع. وليست الكنيسة منغلقة على ذاتها، او هي كنيسة تشبه في طقوسها بعض الطقوس السريّة، لكنّها تبشر بتعاليم المسيح في العالم

أجمع، موحّدة جميع البشر حول السيد الاله المخلص، وحول سرّ تجسده وسرّ فدائه، وحول بشارته الجديدة. انها الكنيسة الجامعة التي يرأسها المسيح وخلفاؤه من بعده، في وحدة الجسد السرّي الذي يجعل من كلّ انسان أخاً للانسان الآخر في وحدة الرجاء والخلاص الأبدي.

د ـ رسولية الكنيسة

الكنيسة هي رسولية، والرسل الاثنا عشر هم عواميدها (Firmamentum duodecastylum). منهم تسلّمت الايمان الذي حافظت عليه وتوزعه على جميع ابنائها (ضدّ الهرطقات، ١، ١٠، ١). عقيدتها هي عقيدتهم، ومنها تطلب الحقيقة لأن الرسل أنفسهم قد سلّموها لها (ضدّ الهرطقات، ٣، ٣، ٤). وتقاليد الرسل هي تقاليدها، وهي حافظة للكتب المقدسة التي هي التقليد نفسه. لذلك يجب العودة إليهم لأنهم رؤساؤها ولأنهم حافظو العقيدة (Apud eos qui in Ecclesia sunt presbyteri, apud quos est apostolica doctrina) (ضدّ الهرطقات، ٤، ٣٢، ١). من هنا ضرورة الهرب من الهراطقة، واللجوء الى الكنيسة حيث نتغذى بتعاليم المسيح التي هي الكتب المقدسة. وبهذا المعنى يقول اللاهوتي «بوزار» (Bauzart): «اذا ما اردنا التعمّق في فكر ايريناوس حول

التقليد نجد ان الكنيسة، في نظره، هي التي تضمن الكتب المقدسة من خلال تأكيدها على العقيدة الكاثوليكية. ففي الدرجة الاولى نرى ان هذه الكتب هي الوحي نفسه، وان لها السلطة الحقيقية التي منها تستمد الكنيسة سلطتها في تعليم المؤمنين. كذلك إنها (الكنيسة) تؤكد على الوحي الالهي في هذه الكتب التي تشكّل الركيزة الاساس في بناء الكنيسة جمعاء» (بوزار: محاولة في فهم لاهوت ايريناوس، باريس، ١٩٠٨، ص ١٤٤). فالكنيسة اذن، بواسطة خلفاء الرسل، تنقل إلينا المعنى الحقيقي للكتب المقدسة التي منها تستمدّ سلطتها وتوجيهاتها (ضدّ الهرطقات، ٤، ٣٣، ٨). وهذه الكنيسة لم يكن لها السلطة الكاملة لو لم تكن رسولية بكل معنى الكلمة. فالرسل، تلامذة المسيح، هم الذين أسّسوها، وهم أعمدتها، ولقد أكملوا رسالة المسيح بعد أن سلّمهم المفاتيح بواسطة القديس بطرس، هامة الرسل، وخليفة المسيح على رأسها.

هـ ـ تراتبيّة الكنيسة

ايريناوس يؤكد على ان التقليد وصل إلينا من الرسل بواسطة خلفائهم وتلامذتهم المباشرين، وكذلك بواسطة تلامذة تلامذتهم. هؤلاء التلامذة يدعوهم حيناً اساقفة (Episcopus)، وحيناً آخر كهنة (Presbyteros). ولكن،

بالنسبة اليه، لا توجد فرديّة في الكنيسة، رغم عصمة بعض الأشخاص، بل مجمع الاساقفة والكهنة الذين يشكلون، مع المؤمنين، العصمة الكاملة المستمدّة من الروح القدس الساهر على الكنيسة جمعاء (ضدّ الهرطقات، ٣، ٣، ١). وفي رسالته التي أرسلها الى البابا «ڤيكتور»، والتي يذكرها المؤرخ «اوسابيوس القيصري» في كتابه «التاريخ الكنسي»، ٥، ٢٠، ٢٤، لا يفرّق، في المعنى، بين الاثنين. فاساقفة روما يسميهم حيناً كهنة (Presbyteros) وحيناً اساقفة (Episcopus). وكذلك في رسالته الى الكاهن «فلورينوس» (Florinus) يذكر القديس «پوليكربوس» بين الكهنة (Presbyteros). لذلك نرى عنده ان كلمة اسقف وكلمة كاهن تستعملان الواحدة عوض عن الاخرى.

ولكن، اذا لم يكن التمييز واضحاً بين الاسقف والكاهن، فذلك يعود في نظره، الى ان هناك كهنة قد استودعهم الرسل الأمانة كما الاساقفة، وقد اعتبرهم ايضاً خلفاء لهم. ففي روما مثلاً الباباوات هم خلفاء الرسل، وقد عدّدهم ايريناوس جميعاً. امّا في الكنائس القديمة فلا يذكر إلاّ كنيسة «إزمير» وكنيسة «أفسس»، معدّداً ايضاً سلسلة الذين اهتموا بهما. ورغم ذلك، فانه يشدّد على دور الاسقف، خصوصاً وقد كان كاهناً تحت سلطة الطوباوي «پونطينوس» (Ponthin) الذي رعى

كنيسة «ليون»، والذي كلّفه، مع جمهور الكهنة هناك، بالذهاب الى روما للقاء البابا، حاملاً إليه رسالة من كنيسة «ليون»، الأمر الذي يؤكده بوضوح المؤرخ «اوسابيوس القيصري» في «التاريخ الكنسي»، ٥، ١، ٤، منهياً كلامه بهذه الجملة: «ولقد خلف ايريناوس پونطينوس في الاسقفية».

كذلك يميّز ايريناوس بين الاكليروس والمؤمنين العلمانيين، رغم أنه يسلّم بالكهنوت العام الذي يتمتّع به هؤلاء المؤمنين استناداً الى العهد الجديد والى تقليد الكنيسة عبر العصور. زيادةً على ذلك، وزداً على «ماركيون» الذي فصل بين العهد القديم والعهد الجديد، فانه يعتبر ان التواصل قائم بين الشريعة القديمة والشريعة الجديدة. فالكهنة، في العهد القديم، كانوا يميّزون بخدمتهم للمذبح، بينما الشعب كان يقدّم الضحايا لله على يدهم. كذلك كهنوت الرسل الذين اختارهم المسيح ليكونوا خدمة المذبح ومن سلالة الكهنوت الملكيصادقي. امّا المواهب، مواهب الروح القدس، التي تمنح لجميع المؤمنين، فهي في اطار الكهنوت العام. فحيثما نجد هذه المواهب، فهناك الحقيقة التي يجب ان نتعلّمها. فالحقيقة التي ينطق بها كلّ مسيحي هي التي تميزه بكهنوته العام، غير ان الكهنة هم خدم مذبح الله وهم قادة الشعب وهم المحافظون على العقيدة.

إنها تراتبيّة الكنيسة التي ارادها المسيح، والتي استمرّت وتستمرّ عبر العصور، والتي كان العهد القديم، بكهنته وشعبه، صورة عنها. فمن المسيح، الى الرسل، الى الاساقفة، الى الكهنة، الى الشعب، كنيسة واحدة، برأس واحد، وباعضاء في جسم المسيح السرّي.

و ـ أولويّة كنيسة روما

يقول ايريناوس في كتابه «ضدّ الهرطقات»، ٣، ٣، ٢: «بما أنه ليس ممكناً، في كتاب كهذا، تعداد أسماء جميع الذين توالوا على رئاسة الكنائس من اساقفة، فاننا نتوقّف على الكنيسة الأكبر والأقدم والمعروفة من الجميع، التي تأسست في روما على يد الرسولين الجليلين بطرس وبولس، والتي تتمسك بتقاليد الايمان المعلن للبشر من الرسل ومن خلفائهم الاساقفة، وذلك لدحض آراء جميع الذين حاولوا ان يؤسّسوا كنائس وتجمّعات غير شرعية، إمّا بدافع المجد الباطل، وإمّا مسايرة لرغباتهم، واما بدافع الحكم الخاطىء الذي أعمى عيونهم». ثم يزيد قائلاً: «يجب ان تتوافق مع هذه الكنيسة (كنيسة روما) جميع الكنائس الاخرى، نظراً لسلطتها ولقوّتها، ونظراً لمحافظتها على التقليد الرسولي الذي يجب ان يخضع له جميع المؤمنين» (المرجع نفسه).

من هذا النص نستنتج النقاط الست التالية:

١) إن كنيسة روما هي الأكبر بين جميع الكنائس؛ ٢) إنها على رأس جميع الكنائس؛ ٣) إنها معروفة من الجميع؛ ٤) إنها مؤسّسة من الرسولين بطرس وبولس؛ ٥) معها يجب ان يتوافق، بالضرورة، جميع المؤمنين المنتشرين في العالم، نظراً لسلطتها المطلقة، ونظراً لتقدّمها على جميع الكنائس الاخرى، رغم أن هذه الكنائس تفرض سلطتها على مؤمنيها في حدود معيّنة؛ ٦) وفي النهاية يجب ان يخضع لها جميع المؤمنين في العالم لأنها حافظت على التقليد الرسولي أكثر من غيرها ولها السلطة لتعلن تفسير العقيدة بكل عصمة. وبهذا المعنى يقول «بوسوييه» (Bossuet): «إنه مع هذه الكنيسة يجب ان تتوافق جميع الكنائس وجميع المؤمنين المنتشرين في الارض كلها نظراً لولايتها الاساسية والمطلقة... ونظراً لأن تقليد الرسل حُفظ فيها وانتشر منها في اصقاع الدنيا» (بوسوييه: خطاب عن وحدة الكنيسة، الكتاب الحادي عشر، ص ٦١٠). ايضاً القديس «ألفونس ليغوري» يؤكد الأمر نفسه ويستنتج من نص ايريناوس عصمة البابا ووجوب خضوع جميع الكنائس لكنيسة روما كأنها الرأس والمصدر، معتبراً ان هذا النص هو الوحيد في القرنين الاولين الذي يؤكد على ذلك.

ولكن، رداً على الذين شكّكوا بمعنى ايريناوس الذي يعتبر غير واضح في ترجمته اللاتينيّة لأن النص اليوناني قد فُقد، هل بامكاننا اعتبار أولويّة كنيسة روما فعليّة وحقيقيّة؟ ايريناوس نفسه ليس واضحاً في هذا الأمر، ولكن توجيهه يعبّر عن فكرة الأولوية دون شك. فكلامه أنه من الضرورة ان تتوافق جميع الكنائس الخاصة مع كنيسة روما نظراً لأولويتها، ونظراً لأن ايمانها هو المقياس الفعلي لايمان الكنيسة الجامعة، فهذا يعني ان اسقف مدينة ليون يقرّ بهذه الاولوية ويلتزم بها. وزيادة في الشرح يقول: اذا اختلفت احدى الكنائس في الرأي مع كنيسة روما، فعلى هذه الكنيسة ان تذهب الى روما وتتوافق معها، لا على كنيسة روما ان تقوم بذلك لأن البابا، خليفة بطرس، هو في روما، وهو صاحب الكلمة الأخيرة. وموقف ايريناوس نفسه من البابا كان واضحاً في هذا الأمر. فيوم حصل الخلاف بين كنائس الشرق وكنيسة روما حول تعيين يوم الاحتفال بعيد الفصح الذي كانت تعيّد له الكنائس الشرقية في الرابع عشر من نيسان مع اليهود، بينما كنيسة روما كانت تعيّد له نهار الأحد الواقع بعد الرابع عشر، وقف ايريناوس موقفاً حازماً من البابا «ڤيكتور» الذي فصل الاسيويين عن الشراكة ودافع عن التقليد الشرقي المأخوذ عن الرسل أنفسهم، وبنوع خاص عن معلّمه «پوليكربوس»، لكنّه في النهاية خضع لارادة روما والتزم بها. هذا الموقف

كان اعترافاً واضحاً من ايريناوس نفسه بان البابا هو رأس كنيسة المسيح على هذه الأرض، وهو الذي يجب ان يلتزم الجميع بمقرّراته.

وباختصار، فان الأولويّة التي يعترف بها ايريناوس لكنيسة روما لا تعود إليها كون روما هي عاصمة الامبراطورية، بل لأن هذه الكنيسة هي مقرّ قداسة الحبر الأعظم المعصوم عقائدياً، ولأنها تسلّمت الأمانة من الرسولين بطرس وبولس، ولأنها شرعاً صاحبة الكلمة الأخيرة في شؤون الايمان. امّا الكنائس الاخرى المنتشرة في العالم فلها استقلاليتها الادارية والتوجيهيّة، لكن يجب ان تتوافق مع السلطة الاولى المتمثلة بقداسة الحبر الأعظم، رأس الكنيسة، وخليفة المسيح على السدّة البطرسية، من الوجهة العقائدية والايمانية. من هنا ضرورة الانتماء إليها للحصول على الخلاص. إنها الفردوس الأرضي الذي أوجده المسيح لنرى من خلاله صورة الآب السماوي.

ز ـ الكنيسة والدولة

إنه من الواضح ان ايريناوس لم يتطرّق مباشرة الى موضوع علاقة الكنيسة بالدولة، ولكنه تحدّث عن سلطة الامبراطور من خلال كلامه على الاضطهاد الذي حصل ايام «ماركوس أوريليوس». ففي كتابه «ضدّ الهرطقات»،

٢، ٦، ٢، يقول: «الامبراطور هو سيدنا»، وسلطته من الله وليست من الشيطان. وفي مكان آخر يقول: «إن القضاة الذين يحكمون بالعدل سوف لا يدانون على ما حكموا به عدلاً وحقاً. ولكن سينالون حكم الله العادل على كل ما يصنعون من ظلم وجور وكفر وزندقة ضدّ الشريعة كما المتسلطون والظالمون» (ضدّ الهرطقات، ٥، ٢٤، ٢). كذلك يقول ايضاً: «الانسان، الذي ابتعد عن الله، أصبح غاضباً وساخطاً وحانقاً. وبما أنه لم يعرف خوف الله، فان الله فرض عليه خوف البشر إذ جعله خاضعاً لشريعتهم حتى يلتزم بالعدل تجاه الآخرين. فالملك الأرضي أقامه الله من اجل خير الأمم كي لا يأكل الانسان أخاه الانسان. وهكذا، فان الضريبة المطلوبة منا، كما يقول القديس بولس في رسالته الى الرومانيين، ١٣، ٦، هي ضريبة لأناسٍ هم وكلاء الله وخدامه» (ضدّ الهرطقات، ٥ ٢٤، ١). وينهي كلامه عن الحضارة الرومانية قائلاً: «بواسطة الرومان عمَّ السلام العالم أجمع، حيث بامكاننا التنقل، بحراً وبراً، دون خوف، وحيثما نريد» (ضدّ الهرطقات، ٤، ٣٠، ٣).

ولكن، تجاه هذا الموقف الايجابي من السلطة المدنية، فان ايريناوس يطالب الامبراطور، باسم المسيحيين، العدل والحكمة والمعاملة الحسنة بالنسبة الى اخوانه في الايمان. والذي دفعه الى هذا الموقف هو

الاضطهاد الذي ذهب ضحيته المئات من المسيحيين الذين قتلوا ظلماً لأنهم مسيحيون وحسب. من هنا كانت مطالبته بموقف عادل وحليم من قبل الامبراطور والاباطرة لأن المسيحيين هم أبناء سلام ولا يرفضون السلطة المدنية، بل يصلّون من اجل الحكام، معتبرين ان سلطتهم من الله، هذا اذا فعلوا الخير. لذلك يدعو ايريناوس أبناءه لطاعة السلطة المدنية، ضمن حدود القانون العادل، وضمن حدود حقّ الانسان في الالتزام بمعتقده وبايمانه.

٥
النعمة في لاهوت ايريناوس

القديس ايريناوس يؤكّد، ضمناً وعلناً، على ضرورة النعمة في التجسّد والفداء. فالانسان، الذي دمّرته الخطيئة، اراد الله خلاصه بواسطة المسيح الفادي، وبنعمة الروح القدس التي أعادته الى المجد الذي فقده في الفردوس (ضدّ الهرطقات، ٤، ١٤، ٢؛ ٥، ٨، ١؛ توضيح التعليم الرسولي، ٩٧). فحياة الله لا يعطيها للانسان إلاّ الله. وبهذا المعنى يقول: «هو الله الذي يعطي، مجّاناً، الانسان المائت عدم الموت، والانسان الفاسد عدم الفساد. لذلك يجب ان لا نعتقد ونفكر، بكبرياء ونكران جميل، أننا نحن الذين نلنا الحياة بقوتنا، ومن ذاتنا، بل الخبرة علمتنا ان عظمة الله هي التي أعطتنا الثبات والحياة الابدية، وليس طبيعتنا ذاتها. وبدل ان ننكر مجد الله الذي تجلّى فينا، علينا ان نرى بوضوح قوته وعظمته والنعم الكبيرة التي وهبها للانسان. وانه لمن الضرورة ان لا نخطىء في فهم طبيعتنا الانسانية الضعيفة، والاقرار بنعمة الله التي أعطيناها بواسطة تجسّد المسيح وفدائه» (ضدّ الهرطقات، ٥، ٢، ٣). فالله، اذن، هو الذي أوجد الانسان بحبّه له، وأعطاه جميع النعم مجاناً، لأنه (أعني

الله) ليس بحاجة الى شيء او الى انسان ليأخذ مقابل ما أعطى. إنّه اراد الخلاص للانسان، لذلك أعطاه جميع النعم الضرورية لهذا الخلاص. والنعمة، اذا ما عملنا بها، تجعلنا نتطابق مع ارادة الله، وتجعلنا ايضاً شبيهين له. إنها نعمة الحياة الالهية التي تثمر خيراً في هذه الدنيا، والتي تجعلنا نتخطّى جميع صعوبات هذه الحياة.

ولكن ايريناوس يزيد قائلاً: مع هذه النعمة التي تحيي وتجلعنا نصنع ما يساعدنا على خلاصنا، هناك مواهب كثيرة يعطينا اياها الله في قلب الكنيسة. هذه المواهب هي مواهب النعمة نفسها التي يعطيها الله لكي يكون الخلاص لجميع البشر على السواء. فالله هو إله الجميع، والمسيح تجسّد ليخلّص البشرية جمعاء. وبهذا المعنى يقول: «كما انه هو، كلمة الله القادر على كلّ شيء، قد أثّر فينا، من خلال حضوره غير المرئي، والممتد في العالم أجمع، كذلك يؤثر فينا ايضاً في العلو والعمق، وفي الطول والعرض، لأنه هو الكلمة الالهي الذي حقق التدبير الخلاصي بموته عن الجميع، باسطاً يديه على الصليب، وهو ابن الله حقاً... إنه هو الذي ينير العلو، أعني السموات، وهو الذي يدخل الاعماق، وهو الذي ينتقل من الشرق الى الغرب، وهو الذي يصل الى الشمال والجنوب، داعياً لمعرفة الله أبيه جميع البشر المنتشرين في العالم أجمع» (توضيح

التعليم الرسولي، ٣٤). فالخلاص لم يكن ممكناً لولا تجسّد المسيح ونعمة الروح القدس. وما النبوءات في العهد القديم سوى تهيئة وتأكيد على هذه النعمة التي سينالها البشر بواسطة المسيح إذ ان التاريخ هو تاريخ صعود الانسان لا عودته الى الوراء. وكما ان الله هو واحد، كذلك الخلاص بنعمته هو واحد (ضدّ الهرطقات، ٤، ٩، ٣). وفي هذا التاريخ الخلاصي، الذي هو نعمة من الله، يلحظ ايريناوس، مقارنةً مع الاناجيل الاربعة، أربع محطات في التدبير الالهي من آدم، الى نوح، الى موسى، الى المسيح. فالله أعطى آدم الشريعة الطبيعية في الوصايا العشر، وعاهد نوح على أن لا يكون طوفان بعد اليوم كي تبقى الحياة على الأرض، وأعطى موسى الشريعة الموسوية التي دعاها «دائرة الزمن» وحقق في المسيح، وبواسطة الكتب المقدسة، «كمال الازمنة» (ضدّ الهرطقات، ١، ٨، ٢). فالشريعة الموسوية شدّدت وزادت الشريعة الطبيعيّة بالنسبة الى اليهود الذين رفضوا عهد الرب. امّا بالنسبة الى الأمم الذين لم يكونوا تحت شريعة موسى، فان ايريناوس يعتبر خلاصهم غير ممكن: «قبل دعوة الأمم، كانت الحياة صحراء جافة، والكلمة لم يكن قد حلّ فيهم، والروح القدس لم يكن قد رواهم بعد» (توضيح التعليم الرسولي، ٨٩)، لكن مجيء المسيح غيّر المقاييس من مجرّد كونه مات عن جميع البشر، وأصبح بامكان

الوثنيين أنفسهم ان يخلصوا اذا كانت ارادتهم صالحة. فالله، الذي هو إله الجميع، إله الوثنيين كما إله اليهود والمؤمنين، هو الأب المغذّي، والملك، والحكم في الوقت نفسه (توضيح التعليم الرسولي، ٨). فشريعة المحبّة حلّت مكان شريعة الخوف، والذين كانوا عبيداً أصبحوا أبناء، ودعوة الأمم التي أعلنها الانبياء قد تحققت بالمسيح يسوع: «الى الذين يؤمنون، ويحبون السيد، ويعيشون في القداسة والعدل والصبر، أعطى الله الحياة الأبدية بواسطة قيامة الاموات، من خلال استحقاقات الذي مات وقام، يسوع المسيح» (توضيح التعليم الرسولي، ٦١، ٨٦ ـ ٩٧).

فالمسيح، بحبه، قد أغدق النعم على البشر واعطاهم كمال الحب، بدل الشريعة القديمة التي كانت تكبلهم. وبكثرة النعم قد أصبح الخلاص ممكناً، وابتدأت المسؤولية تكبر، والالتزام فرض على كلّ من نال هذه النعم، والنعمة نفسها أصبحت شاملة وكاملة لجميع البشر. إنها وحدها، وبفيض محبّة الله، قد ساعدت كلّ انسان على تحقيق خلاصه، في المسيح يسوع، الاقنوم الثاني من الثالوث الاقدس.

٦
الايمان والحبّ في لاهوت ايريناوس

يقول ايريناوس: اذا كنّا قد خُلّصنا باستحقاقات المسيح ونعمه، فهذا يفرض علينا ايضاً أن نتجاوب معه بان نؤمن به، ونحبّه، ونعمل اعمالاً تليق بذلك. فالايمان والحب هما الجواب الواضح، من قبلنا، على أننا أردنا هذا الخلاص وساهمنا به.

أ ـ الايمان

إنّه ضرورة ملحّة لخلاصنا. فكما آمن ابرهيم، كذلك يجب ان نؤمن نحن إيماناً كاملاً بالله. وبهذا المعنى يقول: «بما ان الانسان هو كائن حيّ، مركّب من نفس وجسد، فانه من الضروري والعدل أن نأخذ بعين الاعتبار هذين العنصرين. وكما أنه من هذين العنصرين يأتي الخطأ، لذلك يجب ان نشدّد على قداسة الجسد التي تتحقق بالبعد عن جميع الاعمال المشينة والتي تقودنا الى البعد عن الله، وعلى قداسة النفس بالالتزام بايمان عميق وكامل بالله، دون زيادة او نقصان. وكما ان قضية خلاصنا تتعلّق بالايمان، فانه ايضاً من الضروري والعدل ان نحافظ على هذا الايمان، وان ندافع عنه»

(توضيح التعليم الرسولي، ٢، ٣).

الايمان، اذن، في نظر ايريناوس، هو ثقة بالله، وقبول بالحقيقة المعلنة منه بواسطة الانبياء، والتي تحققت في المسيح الذي نقلها الى الرسل، ومنهم الى الكنيسة جمعاء. لذلك يجب الايمان بكل كلمة خرجت من فم الله لأنها صادقة في كلّ شيء (توضيح التعليم الرسولي، ٣، ٤٣، ٩٨). وكما الايمان، كذلك الارادة الحسنة في العمل، لأن الايمان هو نتيجة الارادة الحرّة. نعم، ان الايمان هو نعمة، ولكن التجاوب معه هو من ارادة الانسان الحرّة الملتزمة (ضدّ الهرطقات، ٣، ٢٤، ١).

الايمان هو ايضاً قبول ومعرفة. لذلك يعتبر ايريناوس ان أنبياء العهد القديم قد أعلنوا عقيدة المسيح وهم يبشرون بحياة جديدة (ضدّ الهرطقات، ٤، ٣٤، ١). فابرهيم هو أبو ايماننا (Patriarcha nostrae fidei)، والخلاص الذي أتى به الكلمة الالهي قد عرفه ابرهيم مسبقاً كما عرفه الرسل وتبعوا المسيح. فالمسيح هو في الكتب المقدسة منذ البدء. إنه الكنز الذي كان مخفيّاً، ولم يعرف كلياً إلاّ في التجسّد والفداء. اما العهد الجديد فقد أعلن ما كان مخفيّاً. ونموّ الايمان يتوقف على أمرين: التأكيد على مجيء المسيح، ومعرفة الحقائق التي كانت مخفيّة في العهد القديم. غير ان هذا الايمان لا يسقط، في نظر ايريناوس، بعد الموت، بل إنه

يستمر في السماء كما المحبة. إنه تجديد متواصل بمحبة الله وبقدرته وبحنانه وبعطفه وبالخلاص الذي اعطاه للبشرية جمعاء بواسطة ابنه، الكلمة الالهي.

ب ـ الحب

الايمان وحده، في نظر ايريناوس، لا يكفي، بل يجب ان يقترن بالحبّ الذي يعني طاعة الله الكاملة والعمل بكل ما أوحى به. والايمان والحب والمعرفة هي العناصر الثلاثة الاساسية التي تقوم عليها صلة الانسان بالله، جواباً على نعمته التي أغدقها على البشر من خلال تجسّد المسيح الفادي لأجل خلاصهم. فالايمان (الحب) والعمل هما ضروريان للخلاص، والايمان نفسه يدفع للعمل نظراً الى أن الايمان ـ المعرفة يجعل الانسان أكيداً من ان التجاوب مع النعمة هو عملٌ خلاصي.

فاعمال الايمان، اذن، هي اعمال حبّ. من هنا كانت الوصية الاساسية في تعليم المسيح وصية المحبّة. وبهذا المعنى يقول: «ان خلاصنا أكيد اذا كانت لنا شريعة ثابتة، واذا كنا نعمل بوصايا الله، مؤمنين به، خائفين منه لأنه السيد، ومحبّين له لأنه الأب» (توضيح التعليم الرسولي، ٣). ويزيد قائلاً: «بالايمان وبالمحبة لأبن الله يجب ان نعيش حياة جديدة بمعونة كلمة الله» (توضيح التعليم الرسولي، ٨٧، ٨٩).

وباختصار، فان ايريناوس، الذي يقدّر المعرفة كثيراً يعتبر ان الحب والمحبة هما أفضل منها، وأفضل من كلّ شيء، وانهما التعبير الكامل عن تجاوب الانسان على نعمة الله الخلاصية. ويختصر كلامه دائماً قائلاً: «بدون الحب والمحبة كلّ شيء باطل، وكلّ شيء لا قيمة له». وبذلك يكون كلامه صدىً لكلام القديس يوحنا الرسول، ولكلام القديس بولس الرسول، في تأكيدهما على ان المحبّة هي فوق كل شيء، لا بل هي الكمال نفسه.

٧
الاسرار في لاهوت ايريناوس

إن تعليم ايريناوس حول الاسرار ينطلق من قناعته بان الخلاص يأتينا بطرق ثلاث: بواسطة الايمان، وبواسطة الاعمال، وبواسطة الطقوس. وهذه الثلاثة نجدها في الكنيسة إذ إن النعمة تخلّص الذين هم مهيّئون لقبولها، وبالتالي فان الاسرار هي التي تعطينا النعمة. ورغم ان البعض من اللاهوتيين قد اعتبر ان الاسرار هي من تعليم الغنوصيين، غير ان ايريناوس يؤكد على انها تعليم الكنيسة الاساسي، وهي في الواقع جوهر الطقوس الدينية منذ امتداد كنيسة المسيح في الشرق والغرب. فلا صلة اذن بين تعليم الغنوصيين وتعليم الكنيسة الجامعة، إذ ان هذه الأخيرة كان لها المفهوم الحقيقي الذي اراده المعلم الالهي وقد اتبعته عبر الزمن، دون الركون الى تعاليم اخرى مساندة او مناهضة.

أ ـ سرّ العماد

سرّ العماد هو من المسلّمات الاساسية في لاهوت ايريناوس، ولم يرد ان يتكلّم عنه او عن الاسرار الاخرى لأنه اعتبر ان التقليد الكنسي الذي كان متّبعاً كان في

صميم العقيدة المسيحية، غير ان كلام الغنوصيين المشوّه حول العماد نفسه وحول الفداء دفع بايريناوس لتوضيح مفهوم الكنيسة الحقيقي للاسرار، وذلك لكي لا يكون هناك شك حول ذلك من المؤمنين. فصيغة العماد، في نظره، حسب التعليم الكاثوليكي، تؤكد على هذا السرّ الذي يعلن الايمان بالآب والابن والروح القدس والكنيسة ومغفرة الخطايا وشراكة القديسين. ومن خلال ذلك يوضح ان مادة العماد هي الماء، والمعمّدين هم البشر المؤمنون من اي عمر كانوا، والنعم الناتجة عنه (أعني عن العماد) هي نعم الله الخلاصية كلها. وبمقابل تشكيك الغنوصيين بعماد الاطفال، فايريناوس يقول: «إن الأطفال، كما الراشدين، عليهم قبول هذا السرّ، لأن المسيح أتى ليخلّص جميع البشر، والأطفال لهم حق الخلاص. إنه (اي العماد) تجديد للبشرية جمعاء، وغفران للخطايا، وتطهير للنفس وللجسد، جاعلاً من الانسان ابناً لله بمنحه الروح القدس (ضدّ الهرطقات، ٣، ١٧، ١ ـ ٢).

ب ـ سرّ التثبيت

سرّ التثبيت هو امتداد لسرّ العماد. فالمؤمن الذي نال العماد هو بحاجة الى القوة التي تجعله يتحمّل مسؤولياته في هذه الدنيا، دون خوف ولا شك، فاذا بسرّ التثبيت،

الذي يرمز الى حلول الروح القدس على التلاميذ يوم العنصرة، يعطيه القوة والثبات فيشهد للمسيح حتى الشهادة. وهذا السرّ الذي لا يمنح إلاّ مرّة واحدة في الحياة لأنه يسم النفس وسماً لا يمحى، ينتدبها لخدمة المسيح ويكون لها، اذا أحسنت الخدمة، عربون المجد، واذا لم تحسنها، مدعاة للعار والهلاك. وايريناوس، في تعليمه هذا، لا يخرج عن خط التقليد الكنسي الذي كان متبعاً في ذلك الزمن.

ج ـ سرّ الافخارستيا

سرّ الافخارستيا هو سرّ الحضور الحقيقي والفعلي للسيد المسيح بجسده ودمه. والاجساد البشرية، من مجرّد تناولها جسد المسيح ودمه، قد أصبحت تحت حكم المنبعثة والمنتصرة على الموت لأنها تغذّت بالجسد والدم الالهيين. وبهذا المعنى يقول، رداً على الغنوصيين الذين علّموا ان الجسد ليس بامكانه الحصول على نعمة الله: «بينما الكأس، الممزوجة بالماء، والخبز المصنوع، هما جسد المسيح ودمه، وقد اعطي جسدنا الغذاء والقوّة، كيف بامكانهم (أعني الغنوصيين) ان يؤكدوا على ان الجسد هو غير قادر على نيل عطية الله، أعني الحياة الابدية، التي تغذّت بجسد المسيح ودمه، وهو عضو من اعضائه؟... إن جسدنا قد

تغذّى من الكاس التي هي دمه، ونال قوة من الخبز الذي هو جسده. وكما ان غصن الكرمة المزروع في الارض قد نمى، وحبة الحنطة التي وقعت في الارض قد ماتت ونمت وتكاثرت بنعمة الروح القدس، ثم أصبحا سرّ الافخارستيا بواسطة كلمة الله، كذلك اجسادنا، التي تغذّت بهذه الافخارستا، قد تنمو في الوقت المناسب» (ضدّ الهرطقات، ٥، ٢، ٣). وفي موضع آخر يقول: «وكيف بامكانهم (أعني الغنوصيين) ان يقولوا إن الجسد يذهب الى الفساد وليس له شراكة في الحياة الأبدية، هو الذي تغذّى بجسد السيد ودمه؟ فليغيّروا رأيهم، وليتوقفوا عن التقادم المشوّهة التي ذكرتها سابقا. اما رأينا فهو رأي المسيح والكنيسة في سرّ الافخارستيا، وسرّ الافخارستيا نفسه يؤكد رأينا. فنحن نقدم له اشياء هي ملكه، تؤكد على الشراكة والوحدة، وتعلن قيامة الجسد والروح. وكما ان الخبز الأرضي، الذي نصلي عليه ونطلب من الله ان يحلّ فيه قد اصبح سرّ الافخارستيا المؤلف من عنصرين، عنصر ارضي وعنصر سماوي، كذلك اجسادنا، التي تناولت الافخارستيا، أصبحت غير فاسدة لأن لها رجاء القيامة الأبدية» (ضدّ الهرطقات، ٤، ١٨، ٥).

من النصين السابقين نستنتج ان الخبز والخمر، في نظر ايريناوس، لا يتحوّلان الى جسد المسيح ودمه إلاّ

عند حلول الروح القدس، او ما يسمّى بالفرنسية (Epiclèse)، وهي الفكرة الشرقية التي كانت سبب مدّ وجزر بين الشرقيين والغربيين. والافخارستيا، عنده، لها طابع الذبيحة كما نقرأ ذلك عند النبي «ملاخيا». وبهذا المعنى يقول ايضاً: «وعندما أمر تلاميذه ان يقدموا لله بواكير خلقه ـ لا لأنه بحاجة الى ذلك، بل لكي لا يجعلهم غير مثمرين وعاقين ـ أخذ الخبز المصنوع، وشكر، وقال: «هذا هو جسدي». وكذلك الكأس، التي هي ايضاً جزء من هذا الخلق، قد أعلنها دمه. فالذبيحة هي عهده الجديد، والكنيسة قد استلمتها من الرسل وتقدمها للعالم أجمع، ولله الذي يعطينا غذاء كأنها بواكير نعمه ومواهبه في العهد الجديد، هذا العهد الذي أعلنه مسبقاً «ملاخيا»، أحد الانبياء الاثني عشر: «انني لم أرضَ عن ذبائحكم، يقول الرب القوي، ولا أقبل الذبائح من يدكم، وذلك لأنه، من مشرق الشمس الى مغاربها، اسمي هو ممجّد بين الأمم، وفي كلّ مكان يقدم البخور لاسمي، ذبيحة طاهرة، إن اسمي هو عظيم بين الأمم، يقول الرب القوي»، وبذلك يعلن بوضوح، بهذه الكلمات، ان الشعب الاول (اعني اليهود) يتوقف عن تقديم الذبائح لله، بينما، في كل مكان، تقدّم له ذبيحة طاهرة واسمه عظيم بين الأمم» (ضدّ الهرطقات، ٤، ١٧، ٥).

وباختصار، فان الافخارستيا هي ذبيحة فعلية، في نظر ايريناوس. إنها الحضور الالهي الذي يحيي اجسادنا التي ماتت بالخطيئة والتي عادت الى براءتها الأولى من مجرّد تناول جسد الرب ودمه. والمسيح، بذلك، أعادنا الى الشراكة مع ابيه السماوي الذي اوجدنا للخلاص وللسعادة الأبدية.

د ـ سرّ التوبة

يقول ايريناوس إن التوبة هي ضرورية لكلّ خاطىء. فالمخلّصون، في نظره، هم قسمان: القسم الاول هم اولئك الذين نالوا نعمة الله وحافظوا عليها طوال حياتهم، والقسم الثاني هم اولئك الذين أخطأوا بعد نيل النعمة وعادوا فحصلوا عليها من خلال توبتهم. امّا الذين اخطأوا باعمال الجسد وجحدوا الايمان، أعني الكافرين والجاحدين لنعمة الله، فان هؤلاء تنتظرهم نار جهنّم (ضدّ الهرطقات، ٣، ١٤، ٤؛ ٢٣، ٣؛ ٥، ١١، ١؛ ٢٤، ٢). ولكن السؤال الذي يطرح هو التالي: هل هناك خطايا لا غفران لها مطلقاً؟ البعض ظنّ ذلك عند ايريناوس، ولكن، في الواقع، إنه يؤكد على ان جميع أنواع الخطايا، اذا كانت هناك توبة، تغفر من الله، وحتى خطيئة الجحود ونكران الايمان التي تستدعي الحرم من الكنيسة. إن التوبة هي الباب الاساسي للعودة الى الله والى حضن الكنيسة. وللغنوصيين الذين اعتبروا

ان المسيح، بفدائه، قد غفر خطايا العهد القديم وحسب، اما خطايا العهد الجديد فلا غفران إلاّ لبعضها، فانه يؤكد على ان كلّ خطيئة، اذا تبعتها توبة حقيقية، يغفرها الله، إن كانت خطيئة العهد القديم او خطيئة العهد الجديد. فالله رحوم كما هو عادل، وان استحقاقات المسيح قد غفرت جميع الخطايا.

واما بالنسبة الى سرّ التوبة، فان ايريناوس يذكّر بان القديس «پوليكربوس»، عندما زار روما للتشاور مع البابا بموضوع تحديد تاريخ واحد لعيد الفصح، قد أعاد الى الايمان الحقيقي كثيرين من الهراطقة وعلى رأسهم «سيردون» (Cerdon) الذي أعلن توبته مراراً عديدة أمام الجماعة. كذلك النساء اللواتي وقعن في الهرطقة «الڤلانتينية» وقد عدنَ الى حضن الكنيسة اضطررن لاعلان التوبة مراراً وقد غفرت خطاياهن على فراش الموت، بعد ان رفضتهنَّ الجماعة اولاً. فالتوبة كانت، اذن، تعلن امام الجماعة المؤمنة مراراً. واما موضوع غفران الخطايا جميعها فلا جدال فيه عند ايريناوس، وذلك من خلال الاعتراف العلني، وليس من خلال الاعتراف السرّي، الذي رفضه اسقف «ليون»، عملاً بالتقليد الكنسي القديم الذي كان يشدّد على هذا الاعتراف العلني امام المسؤولين والشعب في كنيسة المسيح.

هـ ـ سرّ مسحة المرضى

في كلامه على هذا السرّ لم يخرج ايريناوس عن خط الكنيسة التقليدي إذ ذكّر دائماً بما جاء في رسالة القديس يعقوب: «هل فيكم مريض؟ فليدعُ كهنة الكنيسة، وليصلّوا عليه، ويمسحوه بالزيت باسم الرب، فان صلاة الايمان تخلّص المريض، والرب ينهضه، وان كان قد ارتكب خطايا تغفر له» (٥: ١٤ ـ ١٦). وهو، اذ يعدّد مفاعيل الزيت المقدس، يقول: إنه يقدس آلام المريض، ويبعث في نفسه الرجاء بالله، فيحتمل شدته بالتسليم والخضوع لمشيئة الله، وتعود آلامه، بقوة آلام المسيح، غافرة الخطايا العرضية او المميتة، التي لم يحظَ بالحلّ منها في سرّ التوبة، فيؤهل الى دخول ملكوت السموات مبرّراً، لا يعوقه إثم، او ينهض من مرضه اذا رأى الله في سلامته خيراً لنفسه.

وايريناوس، بتشديده على هذا السرّ ومفاعيله، كان يرى ان سلطة الكنيسة هي من سلطة الله، وان الغنوصيين الذين شككوا بسلطة هذه الكنيسة كانوا السبب في رفض بعض تباعهم لدعوة كاهن الرب للصلاة على رأس المريض المنازع. من هنا كان ردّه الواضح عليهم وحملته على تعاليمهم، وتثبيت العقيدة التي كانت تتأرجح بين مؤيدٍ ورافض. ولقد لعب الدور المهم في

عودة الكثيرين من المؤمنين الذين غرّتهم تعاليم المدارس الغنوصية في ذلك الوقت.

و ـ سرّ الزواج

سرّ الزواج هو، في نظر ايريناوس، سرّ مقدّس. ولقد دافع بقوّة عن قداسته في وجه انحرافات بعض الغنوصيين الذين كانوا يتكلّمون عن مباهج الزواج وملذاته العابرة ويتبجّحون بها كما الوثنيين. فكلمة سفر التكوين، ١، ٢: «ذكراً وانثى خلقهم وباركهم وقال لهم: انموا واكثروا واملأوا الأرض» اعتبرها التأكيد على ارادة الله المقدسة التي من خلالها تتطوّر البشرية وتزداد، تحت نظر الله الساهر عليها. والرجل والمرأة هما، في نظره، الاداة الطبيعية لاستمرارية هذا الخلق، يبنيان العائلة ويتعاونان في الحياة على تربية البنين، ثمرة زواجهما المقدس. اما المحبة والامانة حتى الموت فهما الركيزة البشرية الاساسية، اذ ان اختيار الشريك هو عهد امام الله والناس، وبنوع خاص، امام الكنيسة، حافظة امانة المسيح. إنهما (اعني الرجل والمرأة) يؤسّسان عائلتهما في قلب الكنيسة، لتكون مثالاً لعائلات اخرى، وبالتالي لتعطي المجتمع الابناء الاوفياء لايمانهم ولعقيدتهم. وللذين اعتبروا ان الزواج لا يتجدّد بعد موت أحد الشريكين، فايريناوس يدعو الى زواج ثانٍ

للشريك الحيّ لأنه يعتبر ان الزواج الثاني ايضاً مقدّس، وليس حياة زنى كما اعتبر ذلك بعض الغنوصيين المتطرفين.

فقدسية سرّ الزواج قد شدّد عليها ايريناوس وافرز لها فصلاً في اوّل كتاب من كتبه الخمس «ضدّ الهرطقات» نظراً الى أهميّة الموضوع الذي كان متداولاً في ذلك الوقت (ضدّ الهرطقات، ١، ٦، ٤). وبعيداً عن كل تشنّج قد أعاد الى هذا السرّ احترامه وتقديره في وجه التيارات «المواهبيّة» (Charismatiques) التي كانت تعتبر ان الزواج عمل شائن وفيه الخطيئة بالذات. وبقي تعليمه مستنداً عاد اليه جميع اللاهوتيين الذين تطرقوا الى مواضيع اللاهوت الادبي في الكنيسة.

ز ـ سرّ الكهنوت

لقد أفضنا في الكلام عن سرّ الكهنوت في الفصل الرابع من هذا القسم عندما تكلّمنا عن «الكنيسة في لاهوت ايريناوس»، وخصوصاً «تراتبية الكنيسة». فنرجو العودة إليه.

٨
الكتاب المقدس في لاهوت ايريناوس

يقول القديس ايريناوس، إن الغنوصيين، الذين قلّدوا الكاثوليك، قد استعملوا الكتاب المقدس بافراط وبتصرّف. فبدل ان يأخذوا جميع الكتب الموحاة، قد أخذوا مقاطع منها وزادوا عليها مقاطع كأنها منها. لذلك نجد عند «ڤلانتينوس» ومدرسته انجيلاً لا يتوافق وانجيل الرسل ويسميه «انجيل الحقيقة» (ضدّ الهرطقات، ٣، ١١، ٩). و«الماركيونيون» يقدّمون كتباً عديدة منحولة هي من وضعهم مثل كتابهم عن يسوع المأخوذ عن انجيل «توما» (ضدّ الهرطقات، ١، ٢٠، ١) حيث يرفضون كلياً العهد القديم، منتقين ما يوافق عقيدتهم وتعاليمهم. و «الابيونيون» يستعملون انجيل القديس متى الذي كتبه باللغة العبرية، رافضين رسائل القديس بولس وغيرها (ضدّ الهرطقات، ١، ٢٦، ٢). و«السيرنتيون» يميّزون بين يسوع والمسيح معتبرين ان المسيح لم يتألم بينما يسوع هو الذي تألم ومات (ضدّ الهرطقاتِ، ٣، ١١، ٧)، مفضلين من كتب الاناجيل انجيل القديس مرقس وحسب. اما «القايينيّون» فانهم يتمسكون بانجيل «يهوذا» (ضد الهرطقات، ١، ٣١، ١).

هذه المدارس وغيرها من المدارس الغنوصية، يقول ايريناوس، قد أفسدت وزوّرت المعنى الحقيقي للكتاب المقدس (ضدّ الهرطقات، ١، ٩، ١، ٣)، إذ انها كانت تأخذ مقاطع من العهد القديم، ومن النبوءاتِ، ومن امثال المسيح، وتحوّرها كما يوافق تعليمها، او انها كانت تجمع مقاطع من هنا وهناك وتدمجها مع بعضها البعض لتعطيها معنىً جديداً هو بعيد كل البعد عن الحقيقة التاريخية. وهناك البعض من هذه المدارس، عندما كان اصحابها يقعون في حرج امام نصّ من نصوص الكتاب المقدس، كانوا يعتبرون انها خاطئة، وبدون سلطة، وانها لا تتوافق مع الحقيقة، بل هي، في نظرهم، مزيج من تعليم المسيح وممّا زاده الرسل من افكارهم الخاصة (ضد الهرطقات، ٣، ١١، ١ ـ ٢). «الكربوكراتيون» كانوا يعتبرون ان المسيح علّم تعليماً خفياً، باطنياً، مستوراً، ولم يظهر منه إلاّ ما كان في مقدور سامعيه ان يفهموه، بينما حقيقة تعليمه لم يفهمها إلاّ القديس بولس الرسول الذي نقلها الى تلميذه القديس لوقا (ضدّ الهرطقات، ٣، ١٣، ١). واخيراً، فان المسيح، في نظرهم، كان يتكلم، حيناً كصانع العالم (Démiurge)، وحيناً آخر باسم الله المتسامي، ولا أحد يعرف المعنى الحقيقي لتعاليمه إلاّ الغنوصيون أنفسهم الذين اعطيت لهم نعمة خاصة هي موهبة فهم سرّ الله وتعاليمه الخفية (ضدّ الهرطقات، ٣، ١١، ٢).

بمقابل كلّ ذلك، كان موقف القديس ايريناوس التالي:

أ ـ قانونية الكتب المقدسة

لقد أخذ ايريناوس على عاتقه الدفاع عن الكتاب المقدس في عهديه القديم والجديد، مبيّناً ان جميع هذه الكتب، التي أخذت بها الكنيسة، هي حقيقية وموثوق بها، ولا جدال في صحتها. صحيح ان كلمة «قانونية الكتب المقدسة» لا نجدها عنده بحرفيتها، ولكن المعنى الاساسي لها موجود في جميع مؤلفاته. فمثلاً، بالنسبة الى العهد القديم، إنه يقبل بالكتاب الرابع في سفر الملوك، وبحقيقة رسالة «أريسته» (Aristée) عن الترجمة «السبعينيّة» التي كتبت ايام «بتولومايوس» (Ptolémée) ابن «لاغوس» (Lagus) حيث يعتبر ان جميع ما ورد في هذا العهد هو حقيقي وليس كتاب التوراة وحسب، او الكتب التي تسمّى «تاريخيّة». كذلك يؤكد على صحة الكتب التالية: يهوديت، أستير، ابن سيراخ، نشيد الاناشيد، أيوب، طوبيا، عبديا، ناحوم، صفنيا، حجّاي، والمكابيين (ضد الهرطقات، ١، ٣٠، ١١)، هذا دون ان ينسى كتب الحكمة والمزامير والانبياء الكبار. اما بالنسبة الى العهد الجديد، الذي لا يشك بحرف منه، فانّه يستشهد به أكثر من الف مرّة في

كتابه «ضد الهرطقات» وحده، وخصوصاً انجيل القديس يوحنا ورسائل القديس بولس.

وباختصار، فان الشك لم يخامر ايريناوس لحظة واحدة في حقيقة واصالة العهد القديم والعهد الجديد. لذلك نراه يكثر الاستشهادات ليؤكد، في وجه الغنوصيين، أن ما اعلنته الكنيسة التزم به، خصوصاً وان التقليد الرسولي، الذي نقله إليه معلمه القديس «پوليكربوس»، هو الحق، ولا يجب ان يؤخذ باعتبارات التعاليم المغالطة التي كانت تبشر بها المدارس الغنوصية. زيادة على ذلك، فانه رأى ترابطاً بين العهد القديم والعهد الجديد، إذ ان ما كتب قبل المسيح لم يكن سوى تأكيد على ما حققه في حياته: تجسّداً وحياة وبشارة وفداءً وموتاً وقيامة وانتصاراً على الموت.

ب ـ تفسير الكتب المقدسة

يقول ايريناوس: اذا كانت الأمور البشرية ليست معروفة منّا كليّاً، فكم بالأحرى الأمور الروحية. لذلك يجب ان نكتفي بما يمكننا فهمه، امّا الباقي فنتركه لله تعالى، خصوصاً في الأمور المستقبلية التي يجب ان نسلّم بها من خلال تسليمنا لارادة الله (ضد الهرطقات، ٢، ٢٨، ٣). إن الانسان القديس، المؤمن، المتديّن، المحبّ للحقيقة، وحده هو القادر على فهم العلم الالهي.

لذلك يجب ان لا يفسّر الغامض بالغامض، ولكن الواضح بالواضح. والامثال، التي تفسّر ربّما بطرق مختلفة، يجب ان لا نطبّقها على أمور وهمية تدغدغ خيالنا، وإلا فان الحقيقة تأخذ بعداً غير بعدها الحقيقي، والانسان يكون في الخطأ (ضد الهرطقات، ٢، ١٠، ١). وبهذا المعنى يقول: الأفضل ان نكون في جهل محب، على ان نكون في معرفة ملحدة. لذلك، لمعرفة الله، يجب ان لا نكون مشعوذين في تفسير الارقام والمقاطع والرسائل الموجودة في الكتب المقدسة، لأنه بامكاننا، اذا ما تركنا خيالنا يتصرّف، ان نؤوّل الحقيقة حسب هوانا. من هنا، كل ما ورد في هذه الكتب له قيمته ومعناه، حتى الاسلوب، وتقديم الكلام وتأخيره، والفواصل، والنقط، التي يستعملها القديس بولس بدقّة. وبكلمة واحدة، يجب ان تكون الحقيقة هي المقياس الاساسي لكل شيء.

إن كلام ايريناوس هذا هو مليء بالحكمة، رغم أنه، في بعض الأحيان، كان حكمه في غير مكانه، نظراً الى ان مفهوم الأمور، في ذلك الوقت، كان غير مفهومنا اليوم. والسبب في ذلك يعود الى ان تفسيره لبعض مقاطع من الكتب المقدسة كان تفسيراً جريئاً جداً اذ اعتبر مثلاً ان الملائكة هم «أبناء الله»، وان السيد المسيح قد عاش خمسين سنة (ضدّ الهرطقات، ٢،

٢٢، ٣ ـ ٦)، مستنداً في ذلك على اقوال بعض كهنة آسيا. ولكنه في النهاية يعود الى التقليد الكنسي المتّبع. كذلك بالنسبة الى تفاسيره الرمزية للاعداد ولامثال السيد المسيح، فانه تجرّأ واعطى بعداً خفيّاً لها، وفي ذلك تأثر بالرمزية الغنوصية التي كانت سائدة في ذلك الزمن، إلاّ ان رمزيته تبقى ضمن إطار العقيدة الكاثوليكية وتعاليم الكنيسة الجامعة. وهذه الرمزية ردّ فيها على الغنوصيين المتطرفين الذين رفضوا وحي العهد القديم. فطريقته في التفسير كانت بسيطة وواضحة اذ كان يعود، مثلاً، الى نصوص العهد القديم حيث تتكلم عن المخلص ويبرهن فيها للغنوصيين على ان إله ابرهيم واسحق ويعقوب هو نفسه إله العهد الجديد، وان المسيح هو الذي تكلّم عنه الانبياء وكل ما ورد في العهد القديم نفسه. فالمخلص المنتظر هو يسوع المسيح وليس إلهاً آخر كما ادّعى البعض من الغنوصيين. امّا في ما يختص ببعض النصوص غير الواضحة، فايريناوس كان يعود دائماً الى التقليد. وبهذا المعنى يقول: «اذا كان هناك من أمور ثانوية لم توضحها الكتب المقدسة، فانه من الضروري العودة الى التقليد. ولكن، في أمور الايمان والخلاص الاساسية، فان الكتب المقدسة هي واضحة جداً والتقليد يؤكد على ذلك» (ضدّ الهرطقات، ٣، ٤، ١). وفي مكان آخر يقول: «إن الرسل قد وضعوا، في الكنيسة، ملء الحقيقة، بحيث ان

كل الخارجين عنها هم اللصوص وقطّاع الطرق. لذلك يجب البعد عن هؤلاء ومحبة الكنيسة والتعلق بالتقليد. واذا كان هناك بعض الأمور الصغيرة التي تستدعي المناقشة، فانه من الضروري العودة الى الكنائس الرسولية القديمة للتأكد من التفاسير الصحيحة. لماذا؟ لأن الرسل عاشوا فيها وعلموا شعبها ومؤمنيها. واذا اعترض قائل ان الرسل لم يتركوا لنا شيئاً مكتوباً فان التقليد المعيوش، في هذه الكنائس، يثبت حقيقة ما اقول» (المرجع نفسه).

اذن، بالنسبة الى ايريناوس، فان الحقيقة الكاملة هي في الكنيسة. لذلك كلّ تفسير غير واضح في الكتب المقدسة تجب العودة فيه الى الكنيسة وتقليدها. إنها الحكم، وإنها الموجهة، وإنها الأم، وإنها المؤتمنة على تعليم المسيح وتعليم الرسل. وللتأكيد على ان التقليد هو مهم في حياة الكنيسة يقول ايريناوس، رداً على الغنوصيين المتعلقين بحرفية النص: «إن البرابرة، الذين أصبحوا مسيحيين، لم تكن النصوص المقدسة بين أيديهم، ولكنهم عاشوا التقليد الرسولي كاملاً، وعندهم الايمان الحق، والله قد رضي عنهم وجعلهم من ابناء شعبه الجديد» (ضدّ الهرطقات، ٤، ٢٦، ٥).

ج ـ الكتاب المقدس وقانون الايمان

ايريناوس يعلن ويجاهر بان الكتاب المقدس قد أوحى به الله، في عهديه، القديم والجديد. ونجد عنده، في نصين، في الكتاب الثالث «ضدّ الهرطقات»، ٢١، ٢، كلمة «وحي» التي يطبقها على الكتاب المقدس وعلى الترجمة «السبعينية» حيث يقول: إن الله قد اوحى للانبياء ولكتّاب الشريعة بكل ما جاء في كتبهم، كما اوحى لمن ترجم ذلك في الترجمة المعروفة «بالسبعينية». والله، في نظره، قد تمجّد في الترجمة كما تمجد في النصوص الاصلية. وبالنسبة إليه (أعني ايريناوس) ان الذين كتبوا العهد القديم، والتوراة، وكتب الحكمة، جميعهم «أنبياء». من هنا، فاذا كنا نراه يميّز بين كتب الشريعة والانبياء في العهد القديم، مقابل الأناجيل ورسائل الرسل في العهد الجديد، فان جميع كتّاب العهد القديم هم، في نظره، انبياء. وكاتب العهد القديم هو اداة الله في ما كتب كما الانبياء في نبؤاتهم. ولا فرق عنده بين الوحي واعلان هذا الوحي، اذ ان دور الشخص البشري في النبي هو دور ثانوي، بينما الجوهر يقوم على ما اوحى به الله. وكلام الوحي لم يكن موجهاً الى معاصري النبي او الكاتب، بل الى جميع البشر، وبنوع خاص الى المسيحيين، لذلك نجد في كلامهم وفي ما كتبوا الاعلان الحقيقي عن العقيدة، وعن الآلام،

وعن موت السيد المسيح وفدائه للبشر (ضدّ الهرطقات ٤، ٣٤، ١).

هذا بالنسبة الى العهد القديم. اما بالنسبة الى العهد الجديد، فان ايريناوس يميّز بين الوحي واعلان الوحي. ففي العهد القديم هناك الوحي وحسب. اما في العهد الجديد فهناك الوحي والاعلان معاً، رغم انه (اعني ايريناوس) يعتبر العهد القديم والعهد الجديد عهدين متساويين مع الله (ضدّ الهرطقات، ٤، ٩، ١). ومهما كانت التسمية، فالعهد القديم والعهد الجديد قد تكلّما عن المسيح قبل مجيئه وبعده، وعن تجسّده واعماله وموته وفدائه للبشر، وعن الخلاص الذي كان منتظراً من الانسان الذي سقط في الخطيئة برفضه ارادة الله. فالخلاص هو غاية ما كتب، والجوهر هو تجسد الاقنوم الثاني وفداؤه للبشرية جمعاء من خلال آلامه وموته وقيامته.

٩
الانسان في لاهوت ايريناوس

حسب الفلسفة الافلاطونية الانسان له جسد ونفس وروح. وايريناوس يعلم كذلك ان الانسان له جسد ونفس وروح. وبهذا المعنى يقول: «ان يكون لنا جسد أخذ من الأرض، ونفس تسلّمت روحها من الله، فهذا ما يقرّ به كل انسان» (ضدّ الهرطقات، ٣، ٢٢، ١). وبنتيجة ذلك، يقول ايريناوس، ان الجسد الذي له نفس طبيعيّة ليس جسداً كاملاً. لذلك يجب ان تكون الروح موجودة ليكتمل الانسان. وهذه الروح هي روح الله، كما علم القديس بولس، والمسيح قد وعد بها تلاميذه والمؤمنين كعطية سماوية، وهذا ما جعل منهم هياكل الروح القدس. ولكن، في نصوص اخرى، نرى اشكالاً عند ايريناوس في اعتباره هذه الروح روح الله او روح الانسان نفسه. وهذا ما يؤكد عليه هذا النص الطويل الذي يقول فيه: «الانسان صنع على صورة الله بواسطة يديه، أعني الابن والروح القدس. فالنفس والروح هما جزء من الانسان، ولكنهما ليسا الانسان كاملاً، اذ ان الانسان الكامل هو مركّب في اتحاد النفس، التي تنال الروح، مع الجسد الذي صنع على صورة الله... فاذا استبعدنا مادة الجسد، أعني صنيع الله، وتوقفنا على

الروح، فان هذا الانسان ليس روحانياً، بل روح الانسان او روح الله. ولكن، عندما تتحد هذه الروح مع النفس المتحدة بالجسد، ساعتئذٍ يصبح الانسان روحانياً كاملاً من مجرّد حلول الروح، وهذا هو الانسان الذي خلق على صورة الله ومثاله. امّا اذا لم تكن الروح في النفس، فان الكائن البشري هو، في هذه الحال، كائن حيواني، متروك لحالته الحيوانية، غير كامل، على صورة الله، ولكن ليس على مثاله بالروح. وكما ان هذا الكائن هو غير كامل، كذلك ايضاً، اذا وضعنا جانباً الصورة بوضعنا الجسد المصنوع، فانه ليس بامكاننا ان نعتبر هذا الكائن انساناً، بل كجزء من انسان، او كشيء آخر لا يشابه الانسان، اذ ان الجسد الذي صنع ليس الانسان الكامل، بل جسد انسان، او جزء من انسان. كذلك النفس ذاتها، فهي ليست الانسان الكامل وحدها، بل نفس الانسان او جزء من الانسان. ايضاً الروح فهي ليست الانسان، بل نسميها الروح، وليس انساناً. ولكن اتحاد هذه العناصر الثلاثة يؤلف الانسان الكامل (٥، ٦، ١). فهناك ثلاثة اشياء، كما بيّنتُ، تؤلف الانسان الكامل، هي الجسد، والنفس، والروح. واحدة منها، تخلّص وتكوّن، وهي الروح، والاخرى، متحدة ومكوّنة، وهي الجسد، واخيراً، واحدة بين الاثنين، وهي النفس، التي اذا تبعت الروح تسمو معها، واذا تبعت وتعاطفت مع الجسد تسقط في الشهوات الجسدية.

وكل الذين ليست لهم الروح التي تخلّص وتكوّن، ولا الوحدة الكاملة، هم بالضرورة جسد ودم، لأن ليست لهم روح الله، ولا تسكن فيهم» (ضدّ الهرطقات، ٥، ٩، ١).

امّا الحصول على هذه الروح التي تطهّر الانسان وتقدسه، فذلك يعود الى ارادة الانسان ومسلكيته الفاضلة. كما ان خلود النفس يتوقف على المسلكيّة الأرضية، لأن النفس ذاتها ليست خالدة بطبيعتها. فالخلود يتوقف، في نظر ايريناوس، على المسلكية الخلقيّة في هذه الدنيا. والنفس يصبح بامكانها ان تخلد اذا أرضت الله في هذه الدنيا ايضاً. وبهذا المعنى يقول: «كما ان السماء فوق رأسنا، والفلك، والشمس، والقمر، والنجوم بلمعانها، لم تكن موجودة مثلاً، بل أوجدها الله وستبقى زمناً طويلاً حسب ارادة الله، كذلك النفوس والارواح، وكل خليقة، فانها ستدوم وستبقى طالما الله يريد ذلك... فالحياة لا تأتي منا، ولا من طبيعتنا، بل الله هو الذي وهبها لنا. وهكذا، فان الذي يحافظ على عطية (موهبة) الحياة، شاكراً الذي أعطاها، ينال عمراً طويلاً يمتدّ الى جيل الأجيال. اما الذي يرفض هذه العطية، ناكراً جميل الله الذي صنعه، لأنه خليقة لا تعرف خالقها، فانه يحرم نفسه من الخلود الى الأبد» (ضدّ الهرطقات، ٢، ٣٤، ٣).

١٠
الحياة بعد الموت في لاهوت ايريناوس

ان تعليم القديس ايريناوس حول مصير النفوس بعد الموت كان مجال أخذ وردّ بين اللاهوتيين والمفكرين، خصوصاً وان البعض منهم قد اتّهمه بانه يعتبر ان بعض النفوس تزول في الحياة الاخرى. غير ان دراسة عميقة وواضحة للنصوص عنده تبيّن عكس ذلك. ولتوضيح هذا الأمر المهم، رأينا ان نعرض هنا بتفصيل رأيه حول مصير النفوس بعد الموت وقبل القيامة العامة، أعني قبل مجيء المسيح الثاني للدينونة، ومصيرها بعد القيامة العامة، أعني بعد الدينونة العامة.

أ ـ خلود النفس

لقد اعتقد البعض من اللاهوتيين وفي مقدمهم اللاهوتي «دودويل» (Dodwell)، ان النفس، عند ايريناوس، هي غير خالدة بطبيعتها، وان نفوس الأشرار ستزول، بينما النفوس التي ستخلد هي تلك التي حصلت على نعمة الروح القدس في العماد وعاشت في الحق والعدل ومحبة الله. لكن، في الواقع، ان النفس هي خالدة، كما يذكر في الكتاب الثاني «ضد الهرطقات»،

الفصل ٢٣، ٥، ويؤكد على ذلك من منطلق مفهومه المزدوج للخلود حيث يقول: هناك خلود الكائن، وهناك خلود السعادة، وهو الخلود الحقيقي الذي تتكلم عنه الكتب المقدسة. فارادة الله، في نظره، هي التي تقرّر كلّ شيء، ولذلك ان النفوس بطبيعتها هي خالدة لأن الله اراد لها ذلك، وخلودها إما يكون خلوداً في السعادة، او خلوداً في العذاب. فخلود السعادة هو للنفوس الصالحة التي عاشت حسب ارادة الله في هذه الدنيا ولم تتنكر لتعاليمه، بينما النفوس الطالحة هي تلك التي رفضت تعاليمه، وأنكرت وجوده، وجحدت نعمته (ضد الهرطقات، ٤، ٣٨، ٣).

وباختصار، فان خلاصة تعليم ايريناوس حول خلود النفس هي التالية: النفس هي خالدة طبيعياً لأن الله منحها هذا الخلود. فالخلود ليس بطبيعتها اصلاً، بل الله هو الذي منحها اياه لتبقى موجودة. والنفوس المختارة تحصل على خلود السعادة مع خلود الوجود. امّا النفوس الساقطة، فليس لها خلود السعادة ولكن خلود الوجود وحسب.

ب ـ الدينونة الخاصة

يقول ايريناوس: إن الانسان ولد حراً لكي، بواسطة النعمة الالهية، يحقق خلاصه الأبدي. لذلك، عندما

يموت ينال جزاء اعماله على هذه الأرض. فاذا كانت هذه الأعمال صالحة، ينال السعادة، امّا اذا كانت اعمال سيّئة، فانه ينال العذاب. والسعادة والعذاب يبدآان قبل الدينونة العامة. فالأبرار هم في حضن ابرهيم بانتظار القيامة العامة حيث تعود النفس الى الجسد ليسعدا معاً، والأشرار في نار عذاب الى ان تكون الدينونة العامة وتتعذب النفس مع الجسد الذي كانت فيه في هذه الدنيا (ضد الهرطقات، ٢، ٣٦، ١؛ ٤، ٣٧، ١، ٢). امّا حضن ابرهيم ومكان نار العذاب فلا يتكلم عنهما ايريناوس بوضوح. لذلك يذكّر وحسب بما جاء في الانجيل عن لعازر والغني، معتبراً ان كلّ شيء سيكون بانتظار الدينونة العامة حيث يفرز الأبرار الى السماء للعيش بحضرة الله القوي القدير المحب، والأشرار الى نار جهنم الأبدية مع الشيطان واتباعه.

ج ـ حالة نفوس الأبرار قبل القيامة العامة

الخلاص يبدأ في هذه الدنيا حسب ايريناوس (ضدّ الهرطقات، ٥، ٢٨، ١)، لكنه لا يكتمل بالسعادة الدائمة إلاّ بعد الدينونة العامة، رغم ان نفوس الابرار ستكون في حضن ابرهيم، اي في مكان راحة. ورداً على الغنوصيين الذين أنكروا خلاص النفس والقيامة، فانه يؤكد على ان السعادة ستكون للنفس والجسد معاً اذا

عملا بارادة الله في هذه الدنيا.

المسيح، في نظره، عاش شريعة الموت بعد ان مات على الصليب، ولم يصعد مباشرة الى السماء، بل نزل الى الجحيم، ثم قام من بين الأموات، وبقي مع الرسل الى ان صعد بعدئذٍ الى ابيه السماوي. كذلك نفوس الرسل، فبعد الموت، قد ذهبت الى مكان معدّ لها من الله، بانتظار القيامة العامة حيث تعود هذه النفوس الى اجسادها وتقوم مع المسيح لتكون بحضرة الله. وبما ان التلميذ ليس أفضل من معلمه، فان المهلة التي كانت للمسيح بعد موته، قبل صعوده الى أبيه، هي كذلك بالنسبة الى الرسل والى النفوس البارة، والمكان المعد لها، ليس الفردوس الأرضي، ولا فردوساً فوق العالم او تحته، بل هو حضن ابرهيم (ضد الهرطقات، ٥، ١٠، ١). وحضن ابرهيم هو مكان وجود الأبرار قبل مجيء المسيح وبعده. فالنفوس هي في صعود دائم نحو الله حسب الشريعة الطبيعيّة، وهذا الصعود يبقى مستمراً الى يوم القيامة العامة حيث تصبح بحضرة الله الكلية، أعني المشاهدة الطوباوية. امّا الشهداء، الذين تعلنهم الكنيسة فيشاهدون وجه الله مباشرة.

د ـ حالة نفوس الخطأة قبل القيامة العامة

يقول ايريناوس: إن الله قد هيّأ مكان اقامة مناسباً

للأبرار وللأشرار بعد الموت (Aptas habitationes) (ضد الهرطقات، ٤، ٣٩، ٤). فلاعداء النور هيّأ الظلام، وللذين فضلوا خيور الدنيا الحرمان منها (ضد الهرطقات، ٥، ٢٧، ٢)، وللذين أنكروا الله النار الأبدية. وحتى في هذه الدنيا، فان الأشرار ينالون عقابهم هنا اذ يعيشون في حالة نفسيّة مريرة، دائماً في خوف من الموت ومن الدينونة العظمى. امّا بعد الموت، وبانتظار القيامة، فان حالتهم تكون، كما بعد القيامة، عذابٌ بعذاب، ونار أبدية تلفّهم، وبُعدٌ أبدي عن الله، اذ ان ضميرهم سيعذّبهم الى الأبد.

هـ ـ مجيء المسيح الثاني

إن المسيح سيأتي بمجده وعظمته، وبجسده الذي عاش فيه في هذه الدنيا، بعد تدمير المسيح الدجال وحرقه بفيضان النار (ضدّ الهرطقات، ٣، ٤، ٢؛ ٣، ١٦، ٨؛ ٣، ١٩، ٢؛ ٤، ٣٣، ١، ١١، ١٣؛ ٥، ٣٠، ٤). والعالم الذي خلقه الله في ستة ايام، يجب ان يدوم ستة آلاف سنة، والوحش الذي هو المسيح الدجال، يختصر في ذاته الستة آلاف سنة من الالحاد والظلم والشذوذ والنبوءات الكاذبة (ضدّ الهرطقات، ٥، ٢٨، ٣؛ ٥، ٢٩، ٢). وفي تفسيره للعدد ١٨ من الفصل ١٣ من رؤيا القديس يوحنا حيث جاء: «ولا بُدَّ هنا من

الفطنة: فعلى أهل المعرفة ان يحسبوا عدد اسم الوحش، إنه عددٌ لانسان، وهو الرقم «ستُّ مئةٍ وستةٌ وستون»، فان ايريناوس يرفض تسمية الوحش لأن القديس يوحنا نفسه لم يسمّه، معلقاً على ذلك بالقول: «لو رأى القديس يوحنا أنه من الضروري تسمية الوحش باسمه لكان فعل ذلك بوضوح. إنه اكتفى باعلان عدد الأسم، لا بتسميته. إنه لم يذكر اسمه لأن هذا الأسم ليس جديراً بان يتفوّه به الروح القدس، ولكان تأخر مجيئه كثيراً». كذلك المؤرخ «اوسابيوس القيصري» يعتبر ان ايريناوس كان من الذين يعتقدون أن مجيء المسيح الدجال قريب. لذلك، أعلن (ايريناوس) ان مجيء المسيح هو لتدمير المسيح الدجال، ولمنعه من السيطرة النهائية على العالم الذي استعبده بعد الخطيئة. فمجيء المسيح القريب وتجلّيه بعظمته كان منتظراً في القرون الاولى للمسيحية، وايريناوس كان من الآباء الذين بشروا به، كذلك اعتبر من المدرسة الألفية القائلة بملك المسيح على الأرض مدة ألف سنة قبل قيامة الموتى، القيامة العامة.

و ـ قيامة الموتى

عقيدة قيامة الموتى كانت من المواضيع المهمّة التي طرحها القديس ايريناوس، ردّاً على مغالطات الغنوصيين

الذين اعتبروا ان المادة هي فاسدة بطبعها، وبالتالي ليست من صنيع الخالق (ضد الهرطقات، ١، ٦، ٢؛ ١، ٢٢، ١؛ ١، ٢٧، ٣؛ ٥، ١، ٢). ولقد أثبت بقوة ان إله الوحي هو نفسه خالق العالم الحسّي، وان عالم الأجساد هو من اختصاص كلمة الله، «والمادة هي جديرة بالخلاص» (ضد الهرطقات، ١، ٦، ١). وضدّ كل الهرطقات التي كانت قائمة والتي ستأتي بعده، فلقد أكد ان «خلاص الانسان سيكون كاملاً، خلاص النفس والجسد معاً (ضد الهرطقات، ١، ٢٠، ١). امّا قيامة الموتى (قيامة الجسد) فهي عطية من الله، والبرهان على قدرته وعدله (ضد الهرطقات، ٣، ٢٠، ٢). فالجسد، الذي أخذ من التراب، سيعود الى التراب ليثمر كما يثمر الزرع بارادة الله. واجسادنا ستقوم، ليس بقوة جوهرها، بل بنعمة الله (Non ex sua substantia sed ex Dei virtute)، وذلك لأن «الله، أفضل من الطبيعة، له الارادة، وله القدرة، وله الانجاز» (ضدّ الهرطقات، ٥، ٦، ٢؛ ٢، ١٩، ٢). فأخذ الانسان من الارض هو أصعب من اقامته من بين الأموات في نظر ايريناوس. والقدرة الالهية قد أحيت الجسد، المائت طبيعيّاً، كما أحيت النفس الخالدة طبيعياً ايضاً. والبرهان على ذلك هو ان الله قد أعطى الآباء عمراً طويلاً، وكذلك «ايليا» و «أخنوح» و «يونان» والفتيان الثلاثة في أتّون النار. ثم ان الجسد، الذي شارك النفس في الاستحقاقات، أليس من

الضروري ان يشاركها في المكافأة؟ الكتب المقدسة جميعها تؤكد على ذلك. فالعهد القديم والعهد الجديد، وبنوع خاص تعليم المسيح، جميعها أكدت على ان الجسد سيقوم مع النفس في القيامة العظمى (ضدّ الهرطقات، ٥، ١٥، ١؛ ٤، ٥، ٢). ثم ان اعمال المسيح وحدها كافية لتعطينا البرهان الواضح على هذه القيامة. فقيامته هي التي تضمن قيامتنا، وتجسّده لم يكن إلاّ ليخلّصنا (ضدّ الهرطقات، ٥، ١٤). ثم ان سرّ الافخارستيا الذي يغذّي أجسادنا ونفوسنا، بجسده وبدمه، قد وضعه ليجعل أجسادنا غير مائتة. واخيراً، فان الكتب المقدسة تعلّمنا اننا اعضاء المسيح الذي هو رأسنا. فكما ان الرأس قد قام كذلك الأعضاء (ضدّ الهرطقات، ٣، ١٩، ٣). وأجسادنا، التي هي هياكل المسيح، وهياكل الروح القدس، وهياكل الله، هي، من جرّاء ذلك، خالدة، بعد قيامتها، اذ حافظت دائماً على محبتها والتزامها بتعاليم الله.

ز ـ مملكة المسيح الأرضية

قيامة الموتى، في نظر القديس ايريناوس، لا تكون دفعةً واحدة للجميع. ففي بداية مملكة المسيح الأرضية يقوم الأبرار والصديقون والقديسون، وفي نهايتها يقوم الأشرار والخطأة (ضدّ الهرطقات، ٥، ٢٦، ٢؛ توضيح

التعليم الرسولي، ٤١ و ٤٢). وقيامة الأبرار والصديقين والقديسين ليست المرحلة الأخيرة، بل يجب على هؤلاء ان يعتادوا، شيئاً فشيئاً، على «احتواء» الله، أعني ان يعتادوا على مكافأة الله لهم على جهودهم وعذاباتهم التي تحمّلوها في هذه الدنيا، وان يعتادوا ايضاً على ميراث ابرهيم الذي حصل عليه، منه تعالى، له ولابنائه في الايمان (ضدّ الهرطقات، ٥، ٣٢). فالمسيح، الذي أعلن انه سيشرب، مع تلاميذه، خمرة جديدة في ملكوت أبيه حسب ما جاء في انجيل القديس متى، ٢٦، ٢٩، يريد بذلك ان القيامة ستكون للنفس والجسد معاً، وان الملكوت هو ملكوت أرضي ايضاً لأن شرب الخمر لا يكون في السماء، حيث لا يشربون، ولا يأكلون، بل في هذا الملكوت الأرضي الذي يكون فيه الجسد ايضاً (ضدّ الهرطقات، ٥، ٣٣، ١). والذين تركوا كلّ شيء من أجله ينالون مئات الأضعاف في هذه الدنيا وفي الحياة الأبدية: «ينالون مئات الأضعاف في زمن الملكوت، أعني في اليوم السابع، اليوم المقدس الذي ارتاح فيه السيد من اعماله، السبت الحقيقي للابرار والصديقين والقديسين، الذين يرتاحون فيه، ويجلسون الى المائدة التي أعدّها لهم الله، ويأكلون من جميع الأطعمة الطيّبة التي تقدم لهم» (ضدّ الهرطقات، ٥، ٣٣، ٢). وهذا اليوم، الذي هو السبت الحقيقي للأبرار والصديقين والقديسين، يمثّل الف سنة، كما ان الستة

ايام الباقية تمثّل الستة آلاف سنة من عمر العالم الحالي. المؤرخ «اوسابيوس القيصري» يذكر في كتابه «التاريخ الكنسي»، ١، ٣، ٣٩، ان ايريناوس قد تأثر بـ «پاپياس» وأعلن ان ملك المسيح سيدوم ألف سنة. وفي الواقع، فان ايريناوس يعود الى سلطة الكهنة «الذين رأوا يوحنا، تلميذ المسيح» (ضدّ الهرطقات، ٥، ٣٣، ٣، ٤)، ويعتقد ان التقليد الرسولي فسّر النبوءة عن اسحق ويعقوب وغيرها عن مجيء المسيح وملكه بمعنى ألف سنة لهذا الملك. حتى أنه يرفض التفسير الرمزي لذلك. امّا شرحه لهذا الملك، واستناداً الى «پاپياس»، فهو التالي: «دوالٍ تنبت، لكل منها ألف جفنة، وفي كل جفنة ألف غصنٍ، وفي كل غصنٍ الف فرع، وفي كل فرع ألف حبّة، وكل حبة معصورة تعطي ألف كيلٍ من الخمر. وعندما يلتقط أحد القديسين عنقوداً من العنب يناديه عنقود آخر ويقول: «خذني أنا، فانني اطيب، وبارك الله على اسمي» (المرجع نفسه). واما الحيوانات، التي أصبحت هادئة ولا تأكل إلاّ الاعشاب، فانها ستكون خاضعة للانسان. فلا ألم ولا عذاب في هذه المملكة، والأبرار والصديقون والقديسون يصبحون ملوكاً، وينمون بالنعمة والقوة من مجرّد رؤية الله، وبمساعدته يتهيّأون لحمل مجد الله الآب، ويحيون شراكة الملائكة في اورشليم الجديدة على مثال اورشليم السماوية.

وباختصار، فان تشديد القديس ايريناوس على ملك الألف سنة للمسيح كان رداً على الغنوصيين الذين أنكروا عودة المسيح الثانية. واذا أخذ عليه موقفه واقراره بالمبدأ الألفي، فالمهم عنده ان المسيح، بواسطة الايمان، قد غيّر اولئك المؤمنين به، وجعلهم من خاصته المخلصين. فالألف سنة لم تكن عنده إلاّ رمزية، والحقيقة ان المسيح يملك الى الأبد مع أبيه السماوي، وان كل شيء سيتغيّر في الحياة المقبلة، الحياة مع الله، بعد عودته وانتشار ملكه الى جيل الأجيال.

ح ـ الدينونة العامة

الدينونة العامة، التي يتكلم عنها القديس ايريناوس باسهاب، وفي مقاطع عديدة من كتابيه «ضد الهرطقات» و «توضيح التعليم الرسولي»، هي لمحاكمة البشر على اعمالهم، ولتمجيد الأبرار والصديقين والقديسين علناً، كما لخزلان الهالكين علناً ايضاً. فالهالكون، وهنا يختصر كلامه، يذهبون الى جهنم النار، حيث يتعذبون الى الأبد. اما المختارون، وبعد زوال شكل العالم، لا جوهره ومادته، يذهبون الى سموات جديدة وأرض جديدة، على مثال الانسان المتجدّد بالله. وهكذا، فالمختارون يعيشون الى الأبد، مع الله، في هذه السموات وفي هذه الأرض الجديدة. يرون الله، يشاركون

في مجده، ويعيشون سعادة كاملة. غير ان الجميع لا يرون الله بالمقياس ذاته، ذلك لأن الحب وحده هو هذا المقياس. فبقدر ما يحبّ الانسان الله، بقدر ذلك يراه وينعم بسعادة أكبر. والمختارون يكونون في أمكنة ثلاثة: في السماء، وفي الفردوس الأرضي، وفي اورشليم الجديدة. الفردوس الأرضي الذي طرد منه آدم وحواء، وحيث نقل «أخنوخ» و «إيليا» والقديس «بولس» عندما خطف. واورشليم الجديدة حيث كان القديسون ينتظرون مجيء المخلص ويتأملون بخلاصهم. اما السماء فهي سبع حيث تسكن الفضائل والملائكة ورؤساء الملائكة التي تمجّد الله وتكون في خدمته. وهكذا، فالسعادة تزيد كلّ يوم لأن رؤية الله تزيد من محبة المختارين له.

وباختصار، فان تعليم القديس ايريناوس حول الحياة بعد الموت كان متوافقاً مع تعليم الكنيسة الجامعة، رغم ان البعض أخذ عليه أخذه بالألفية مع كثيرين من آباء الكنيسة في ذلك الزمن. ولكن، يبقى اسقف مدينة ليون أحد أعمدة اللاهوت المسيحي، لا بل اوّل من وضع الأسس العقائدية للاهوت مسيحي شامل. امّا تأثيره على تطوّر اللاهوت فهذا ما سنراه في القسم الثالث من هذه الدراسة.

القسم الثالث

إيريناوس

دوره وتأثيره في تاريخ اللاهوت المسيحي

١
دور ايريناوس في تاريخ اللاهوت المسيحي

قبل الكلام على دور هذا العظيم، الذي كان مرجعاً طوال القرون الأولى للكنيسة، ولا سيّما في عصرنا اليوم، لا بُدَّ لنا اولاً من اكتشاف سعة علم هذا الرجل الذي قال عنه «ترتوليانوس»: «إنه مكتشف (قاريء) عجيب لجميع المذاهب الفكرية» (ترتوليانوس: ضد الڤلانتيين، ٥). وفي الواقع، ان المتفحص لمؤلفات ايريناوس يرى بعمق ان استشهاداته العديدة، في جميع حقول العلم، تنبئنا عن رجل كانت له سعة الاطلاع بحيث ان كلّ ما كتبه لم يكن إلاّ ردّاً على المعتقدات والتعاليم التي كانت تناهض الكنيسة من جهة، او بالاحرى استشهاداً لدعم المقولات التي كان يتقدّم بها كبرهان على صحة العقيدة التي يدافع عنها. ولكي تكون دراستنا وافية للتعريف بالدور الذي لعبه في تاريخ اللاهوت المسيحي، نثبت هنا المراجع التي عاد إليها وأخذ عنها لنظهر شمولية مذهبه اللاهوتي الذي كان رائداً في تحديد مبادىء العقيدة المسيحية.

أ ـ المراجع اليونانية

بدون شك يعتبر ايريناوس عملاق قراءة، وكتابه المفضل كان الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد. غير أنه لم يكتفِ به وحسب، بل قرأ الآداب والفلسفات اليونانية بدقة، بحيث نراه يستشهد، بكل بساطة، بنصوص من أهم كتّابها وفلاسفتها. فمثلاً نراه يستشهد بـ «هوميروس» مراراً عديدة ليبرهن على ان الغنوصيين كانوا يزوّرون الكتاب المقدس بادخالهم نصوص منه في بعض ما كتبوا (ضدّ الهرطقات، ١، ٩، ٤؛ ١، ١٢، ٢؛ ٢، ٥، ٤؛ ٢، ١٤، ٢؛ ٢، ٢٢، ٦؛ ٤، ٣٣، ٣). كذلك يستشهد بـ «أفلاطون» ويتوافق معه في أمور كثيرة إلاّ في ما يختص بعقيدة التقمص (ضدّ الهرطقات، ٢، ١٤، ٣، ٤؛ ٣، ١٥، ٥). امّا «أرسطو»، الذي كانت فلسفته في كسوف في ذلك الزمن، فيقول عنه، متوجهاً الى الغنوصيين: «إن أرسطو قد علمكم فن الغوص في أمور دقيقة وكلام لا معنى له» (ضدّ الهرطقات، ٢، ١٤، ٥). غير اننا نراه يستشهد بوضوح، بعددٍ كبير من الفلاسفة والأدباء مثل: «أنكساغورس» و«أنكسيمندر» و«ديموقريطوس»، و«طاليس» و«فيثاغورس» و«الرواقيين» والشعراء امثال «هيزيودس» و«پيندار» و«سوفوكل» و«انتيفان» و«مينندر» وغيرهم وغيرهم كثيراً من الذين قرأهم مراراً عديدة.

نعم، ايريناوس هو مسيحي شرقي، ولكن ثقافته كانت الثقافة اليونانية التي كانت سائدة في ذلك الزمن. لذلك، أخذ عنها الكثير الكثير من الصور التي كانت تدعم فكره المسيحي. فمثلاً، ورغم كونه لم يوفّر «ارسطو» من انتقاداته، فقد أخذ عنه الفكرة التربوية المتطورة التي ربطها بالعهد القديم والعهد الجديد على السواء. كذلك أخذ عن الفلاسفة اليونانيين، المعاصرين له، فكرة طيبة الله وحلمه وعطفه، كما أخذ عنهم الخطوط العريضة للأنطروبولوجيا الانسانية ولفكرة تسامي الله بالنسبة الى الانسان. ولكن، كل هذا، كان يجد له تفسيراً في الكتاب المقدس بحيث أنه استعمل المنطق اليوناني والصور الشعرية التي كان يأخذها عن الشعراء لخدمة فكرته المسيحية وايمانه بالمسيح الذي يختصر الزمن في ماضيه وحاضره ومستقبله.

ب ـ المراجع اليهودية

اعتقد البعض من اللاهوتيين ان ايريناوس كان يهودياً، نظراً الى اتقانه اللغة العبرية التي يستشهد بمقاطع كثيرة منها في كتابه «توضيح التعليم الرسولي». ولكن الواقع هو ان اسقف ليون كان يقرأ العهد القديم بنصّه الأصلي، وخصوصاً الأنبياء وكتب الحكمة، وكان

يقارن تعاليمهم مع تعاليم وفلسفات اليونانيين ليستنتج ان الوحي هو الحقيقة بالذات، وعلى كل مسيحي ان يتأكد من حقيقة عقيدته بعودته الى الكتب المقدسة جميعها. ولم يكتف بالعهد القديم وحسب، بل قرأ النصوص العبرية لكبار الكتّاب اليهود امثال «تيودوسيون» و«أكيلا» و«يوسف» الذي يستشهد بهم كثيراً (توضيح التعليم الرسولي، ٤٣؛ ضد الهرطقات، ٣، ٢١، ١). كما اننا نراه يعود الى «فيلون الاسكندري» في تفاسيره لبعض أمور في العهد القديم مثل تفسيره لحادثة امرأة «لوط» (ضدّ الهرطقات، ٤، ٣١، ٣)، وتفسيره للشمعدان بسبعة أغصان الذي يمثل السموات السبع (توضيح التعليم الرسولي، ٩)، وتفسيره لدور ابرهيم (المرجع نفسه، ٢٤)، وغير ذلك من الأحداث التي وردت في العهد القديم. كذلك رأى البعض من اللاهوتيين ان كتابه «توضيح التعليم الرسولي» هو شرح تعليمي مأخوذ عن التقليد اليهودي نفسه، اذ انه يشرح فيه التقليد المسيحي من منطلق الوحي قبل مجيء المسيح. ولكن، مهما كانت عودته الى التفاسير والتقاليد اليهودية فان ايريناوس يبقى في الخط التقليدي المسيحي الذي ورثه عن الرسل وعن تلامذتهم وعن الكهنة الذين في آسيا وتتلمذ على يدهم قبل ان ينتقل الى الغرب ويصبح اسقف ليون الغالية.

ج ـ المراجع الغنوصية

انطلاقاً من مبدأ محاربة العدو بسلاحه، فان ايريناوس اضطرّ لقراءة مؤلفات الغنوصيين جميعها للردّ عليها، ولا سيما تلك التي كانت تعتبر دخيلة على الليتورجيا الكنسية، خصوصاً طقوس سرّ الافخارستيا التي قيل عنها إنّها من وضع بعض المدارس الغنوصية. ورغم ان الدراسات التاريخية لم تؤكد هذا التأثير، غير ان ايريناوس استفاد من هذا الموقف ليعلن ان يسوع المسيح هو المعلم الالهي الوحيد الذي حمل إلينا المعرفة الحقيقية بواسطة الوحي، وكل ما قاله هو الحقيقي والثابت، ولا ضرورة لفسلفة الأمور كما يتبيّن من تعاليم الغنوصيين. فالانجيل هو الانجيل بكل وضوحه، «والذي ولد من الله هو الله» (توضيح التعليم الرسولي، ٤٧)، ولا مجال للتحليلات العقلية، ولا لادخال أمور تعتبر من وحي الروح، بينما المسيح قال لنا كلّ شيء.

والسؤال المطروح هو التالي: ما قيمة الوثائق التي عرضها ايريناوس عن الغنوصيين، وما هو الدور الذي لعبه في دحضها؟ يقول اللاهوتي «دي فاي» (De Faye) في كتابه «الغنوصيون والغنوصية»: «إنه من الطبيعي ان يهتمّ المدافعون عن الكنيسة بالغنوصيين الذين كانوا ناشطين في ذلك الزمن... وإنه لمن المفيد جداً ان نقرأ

مؤلفات ايريناوس الثمينة حول آراء «ڤالينتينوس» و«بتولومايوس» و«هيراكليون» وجميع تباعهم الذين عملوا طوال ثلاثة أجيال على مناهضة الكنيسة، أعني مدّة ستين سنة، وما كان موقفه منهم، وكيف دحض آراءهم. إنّه معلم في ذلك» (دي فاي: الغنوصيون والغنوصية. دراسة نقدية للوثائق الغنوصية المسيحية في القرنين الثاني والثالث. باريس، ١٩١٣، ص ٩ ـ ١٠). وفي الواقع، فان ايريناوس قد وضع مخططاً لمحاربة الغنوصية، ولتبيان أخطائها، وللتنبيه الى الخطر الذي كان يهدّد الكنيسة من خلال تعاليمها. ولقد كان له الفضل الكبير في عرض اللاهوت المسيحي عرضاً منهجياً من خلال الردّ عليها وعلى تبّاعها، وان كتابه «ضد الهرطقات» بقي ذخيرة كبرى للكنيسة عادت إليه دائماً ولم تزل لتؤكد، من خلاله، على جوهر العقيدة المسيحيّة الثابتة عبر العصور.

د ـ المراجع المسيحية

في الدرجة الاولى إن ايريناوس يستوحي، في مؤلفاته، الكتاب المقدس، وبنوع خاص القديس يوحنا والقديس بولس الرسولين. وفي هذا المعنى يقول اللاهوتي «دوفور» (Dufourcq): «في الحقيقة، نشعر ان ايريناوس هو أقرب الى القديس يوحنا منه الى القديس

بولس. وهذا ما لا نعجب منه عند أحد تلامذة پوليكربوس. ولكن تعليم القديس بولس حول آدم الثاني هو واضح في مؤلفاته كما تعليم القديس يوحنا حول الكلمة الالهي وحول تأليه الانسان بواسطة روح المسيح والآب، كذلك الدور الذي يعطيه للمفهوم الصوفي والواقعي لسرّ الفداء. ففي الحالتين يعود الى الرسولين المذكورين» (دوفور: القديس ايريناوس، ص ١٨٥). اما في ما يختص بالاناجيل والرسائل الباقية، فانه يعود إليها دائماً، وفي نصوص عديدة يستشهد بها. وباختصار فان الكتاب المقدس، العهد الجديد، هو مرجعه الاول والأخير. منه استمدّ كلّ شيء، حتى انه قال: «العهد الجديد يفسّر نفسه بنفسه، ولست بحاجة للعودة الى ما جاء في الدراسات التي تقدّم بها الكثيرون إلاّ من باب الاطلاع لدعم العقيدة بجوهرها».

ولكن، رغم تمسّكه بالكتاب المقدس، فاننا نراه يستشهد بمن سبقه مثل القديس «پوليكربوس» والقديس «اغناطيوس الانطاكي» والقديس «كليمنضوس الروماني» والقديس «يوستينوس الروماني» و«پاپياس» و«هرماس» و«تاسيانوس» وغيرهم. وزيادة على استشهاده برسالة القديس «پوليكربوس» يقول في رسالته الى الكاهن «فلورينوس»، مذكراً بتعليمه: «يظهر لي وكأنني أسمع صوته (صوت پوليكربوس) وهو يخبرنا كيف كان

يتكلم مع يوحنا وباقي التلاميذ الذين رأوا السيد، وكيف انه كان ينقل إلينا اخبارهم وما تعلموه من فم يسوع المسيح، وخصوصاً اخبار عجائبه وتعاليمه» (ضدّ الهرطقات، ٥، ٢٠، ٢٤). ويظهر من ذلك ان التلميذ كان وفياً لمعلمه طوال حياته. اما عن الآخرين، فانه يعود دائماً الى القديس «اغناطيوس الانطاكي» الذي يعتبره: «واحداً منّا» (ضدّ الهرطقات، ٥، ٢٨، ٤)، ويستشهد برسالته الى الرومانيين، والقديس «كليمنضوس الروماني» في رسالته الى القورنثيين (٤، ٢٠، ١٢)، والقديس «يوستينوس الروماني» الذي تتلمذ على يده خلال اقامته في روما، خصوصاً وانه يحترمه كثيراً اذ يعود إليه في كتابين لم يصلانا هما كتابه «ضد ماركيون» وكتاب آخر «ضد الهرطقات»، و«پاپياس» و«هرماس» و«تاسيانوس» وغيرهم من الكهنة الذين عايشوا الرسل وسمعوا منهم اخبار السيد المسيح وتعاليمه وتوجيهاته.

وباختصار، فان الدور الكبير الذي لعبه ايريناوس في تاريخ اللاهوت المسيحي هو أنه نقل إلينا الصورة الواضحة لما جاء في العهد الجديد، وفي رسائل الرسل وتعاليمهم، وفي مؤلفات الذين سبقوه وكانوا دعامة قوية للعقيدة المسيحية. غير ان العودة الى الينابيع لم توقفه عند هذا الحدّ، بل أغنته بتعاليمها بحيث انه تمكّن من

ان يصبح صاحب مدرسة لاهوتية أثّرت على تطور الفكر اللاهوتي طوال الأجيال اللاحقة، وحتى عصرنا هذا. وان محاربته للغنوصيين قد حدّدت توجّهه اللاهوتي وركّزت مذهبه الفكري، استناداً الى الكتاب المقدس الذي كان يقرأه ويتأمله ويحوّله الى غذاءٍ لجميع ابناء الكنيسة، ويبني، على اساسه، جوهر تعليمه اللاهوتي المميّز، في القرن الثاني المسيحي.

٢
تأثير ايريناوس في تاريخ اللاهوت المسيحي

اذا ما أردنا ان نعدّد أسماء اللاهوتيين الكبار من آباء الكنيسة، او من الرعيل الذي لحق بهم ولغاية هذا القرن، من الذين أخذوا عن القديس ايريناوس واستشهدوا بمؤلفاته، فان السلسلة تطول بنا، خصوصاً وان الكثيرين منهم اعتبروه حكماً في العقيدة المسيحية، ولا سيّما اولئك الذين حاربوا الهرطقات مثله، ابتداءً بتلميذه «هيبوليتوس الروماني» ومروراً بـ «أبيفانيوس» و«فيلاستر» و«تيودوريطوس» و«كليمنضوس الاسكندري» و«اوريجانوس» و«أثناسيوس» و«باسيليوس» و«غريغوريوس» و«ترتوليانوس» و«قبريانوس» وغيرهم الكثير الكثير من الذين رجعوا إليه في كل شيء تقريباً. ففي المجادلات والمناقشات حول الثالوث الأقدس وتجسّد المسيح وفدائه، نرى ان سلطته هي في المقدّمة، وان تحديدات الكنيسة اللاهوتية المتطورة هي في خط تحديداته، وتستند الى تعاليمه. والمثال على ذلك ان القديس «كليمنضوس الاسكندري» و«اوريجانوس» قد أدخلا مؤلفاته في برنامج الدراسة في مدرسة الاسكندرية. والقديسون «اثناسيوس الكبير» و«باسيليوس» و«كيريلّوس الاورشليمي» و«أبيفانوس»

يعتبرون أنفسهم تلامذته في شروحاتهم اللاهوتية. وفي مجمع «أفسس» أعلن الرهبان الكاثوليك التزامهم بتعاليمه وبتعاليم القديس «غريغوريوس العجائبي» كمرجع للتقليد الكنسي في محاربة «نسطوريوس». كذلك مناصرو الطبيعة الواحدة في المسيح يعودون إليه، كما الكاثوليك أنفسهم، على أنّه تلميذ الرسل، او معاصر العهد الرسولي، الذي أشرق نوره في بلاد «الغال» بعد ان تتلمذ على يدي القديس «پوليكربوس» في آسيا الصغرى. ورغم ان قوله بـ «الألفية» قد شكّل حرجاً لبعض اللاهوتيين، غير ان تعليمه بقي المرجع في شؤون العقيدة حتى ان كنيسة القرون الاولى فرضت ترجمة مؤلفاته باللغات اللاتينية والارمنية والسريانية لتعم فائدتها الكنيسة جمعاء. ومع «ترتوليانوس» والقديسين «قبريانوس» و«أغوسطينوس» نراه في القمة حيث اعتبر المرجع الأول والأخير في تحديد العقيدة الكاثوليكية الجامعة.

امّا في القرون الوسطى فنرى ان الغرب نسيه الى حدٍّ ما، بينما الشرق اعاده الى الواجهة من خلال الترجمة السريانية لبعض مقاطع من مؤلفاته على يد «ديونيسيوس ابن الصليبي»، ومن خلال نشر النصوص اليونانية على يد «جورجيوس الكورسيري» و«نيسيتاسيوس الأكوميناتي» وغيرهما من اللاهوتيين والمؤرخين. غير

ان القديس «أنسلموس»، في تشديده على ضرورة الفداء، يلتقي معه الى حدّ بعيد، خصوصاً وان فكرة التجسّد هي واحدة عند الاثنين، وان الفداء نفسه هو نتيجة محبّة الله للانسان لكي يملك على قلبنا ونتجاوب مع حبه بحبّنا المطلق له. ورغم هذا التلاقي بين الاثنين، فان الشرح اللاهوتي الوافي الذي اعطاه ايريناوس لم يصل إليه «أنسلموس» بالعمق، بل بقي اسقف مدينة ليون مجلياً في هذا الأمر.

وامّا في عصرنا اليوم، وابتداءً من القرن التاسع عشر، فان عودة ايريناوس الى مسرح اللاهوت كانت واضحة جداً إذ ان الشرق والغرب معاً قد أعاداه الى الواجهة. فاللاهوتي الروسي «مكاريوس» قد كتب كتابين بعنوان: «مقدمة للاّهوت الارثوذكسي» و«اللاهوت العقائدي الارثوذكسي» حيث يشدّد فيهما على تعليم القديس ايريناوس ويقول فيه: «ان لاهوت ايريناوس لا يؤكد على ايمان كنيسة ليون وحسب، بل على ايمان جميع الكنائس في الغرب، وحتى على ايمان جميع الكنائس في العالم» (مكاريوس: مقدمة للاهوت الارثوذكسي، باريس، ١٨٥٧، ص ٤٢٠؛ اللاهوت العقائدي الارثوذكسي، باريس، ١٨٥٩ ـ ١٨٦٠، ص ٤٥ ـ ٤٦). واللاهوتي الالماني «هارناك» يقول عنه ايضاً: «إن الخطوط العريضة لتعليم ايريناوس في كتابه «ضد

الهرطقات» هي موجودة ايضاً في كتابه «توضيح التعليم الرسولي» حيث نرى ان لاهوته ليس لاهوتاً وحسب، بل هو دين وعقيدة كاملة. فكل عضو من اعضاء الكنيسة عليه ان يطلع على ذلك بعمق ليكون ايمانه واضحاً بالنسبة الى موقفه من الهرطقات. ان ايريناوس، في ما كتب، يعيش بنفسه وبعقله وبقلبه ايمان الكنيسة الجامعة... وهذا ما نشعر به عندما نقرأه، وهذا ما كان يبشر به الشعب المسيحي في مدينة ليون في نهاية القرن الثاني بفضل هذا القديس العظيم» (هارناك: كتاب القديس ايريناوس حول توضيح التعليم الرسولي، لايبزيغ، ١٩٠٧، ص ٦٦).

وباختصار، فان تأثير القديس ايريناوس كان مهماً جدّاً في المجمع القاتيكاني الاول كما في المجمع القاتيكاني الثاني حول اولويّة كنيسة روما وحول بعض التحديدات اللاهوتية العقائدية. ورغم الصراع الذي كان قائماً بين الكاثوليك والبروتستانت حول تبنّي الجميع لمواقفه، نكتفي بما قاله عنه «بوسوييه» ردّاً على البروتستانت: «اقرأوه كشاهد حقيقي على ايمان جدودنا لأن ايمانه هو ايمان قديس كبير قد تحدّث مع تلامذة الرسل وعرض لنا العقيدة بمؤلفاته وباستشهاده. فالكنيسة الغالية كان لها الميزة الخاصة بانه كان اسقفها في أهم وأوّل كنائسها، وعلينا ان نفخر بذلك ونتعزّى به

اذ ان مؤلفاته هي صرح ايماني كبير» (بوسوييه: «المؤلفات، باريس، ١٨٦٣، ١٨٦٤، المجلد ١٧، ص٢٣٢). وفي الواقع، فان الكنيسة الجامعة تعتبره اوّل من طرح أسس اللاهوت العقائدي، واول من نقل الصورة الواضحة للتعليم الرسولي الذي امتزج بالتقليد الكنسي عبر العصور. وبين العقيدة والتقليد ربط ايريناوس ربطاً واضحاً اذ عبّر بما كتب عن حقيقة الحياة المسيحية التي عاشها جدودنا في أصعب مراحل تاريخ الكنيسة، في الشرق والغرب. وهو في ذلك شاهد عيان، لم يكتب حرفاً إلاّ من خلال ما رآه مطبّقاً فعلاً في الحياة اليومية. إنه صورة التلميذ المميّز الذي تربّى على يدي «پوليكربوس»، القديس الكبير، الذي كان له الحظ ان يسمع من يوحنا الرسول أخبار المعلم الالهي. فمن يوحنا، الى پوليكربوس، الى ايريناوس، تراث الكنيسة الجامعة، الذي قرأناه في كتابيه: «ضد الهرطقات»، و«توضيح التعليم الرسولي». واذا كان الزمن قد غمره في القرون الوسطى، فان القرون الاولى للكنيسة، والقرون اللاحقة، ابتداءً من القرن السادس عشر ولغاية اليوم، قد أعادت لهذا العظيم مكانته الكبرى، ودوره المميّز، وتأثيره الذي كان، ولم يزل، فاعلاً في تاريخ اللاهوت المسيحي.

الخلاصة

يقول اللاهوتي «دوفور» في كتابه «القديس ايريناوس»، ص ١٦٩: «إن القديس ايريناوس يحتلّ مركزاً مميّزاً في تاريخ الكنيسة: إنه قضى على الغنوصية وأسّس اللاهوت المسيحي». وفي الواقع، فان الغنوصية قد ابتدأ نجمها يأفل يوم هاجمها ايريناوس بعنف، وفنّد تعاليمها، وكشف مغالطاتها. فهذه الهرطقة، التي كانت تستند الى «السرية» في تعاليمها، قد فضحها باعلانه حقيقة الايمان المسيحي التقليدي، وبرفضه لتعدّد العوالم ولتعدّد الآلهة التي كانت تبشر بها. فالقبول بثلاثماية وخمس وستين سماءً، وبثلاثماية وخمس وستين مرتبة ملائكة كان يعني، في نظره، رفض الاله الواحد المثلث الأقانيم. وبمقابل تزوير الحقيقة بصور اسطورية للمسيحيّة، برهن ايريناوس على ان الغنوصية هي من نسيج خيال بعض المسيحيين العقلانيين الذين ارادوا التنظير كبعض فلاسفة الوثنية. والنقاط الثلاث الجوهرية التي حاربهم بها هي التأكيد على قانون الايمان الكنسي الذي لا شك فيه، ورفض الثنائية والحلولية التي كانت تهدف لرفض وحدانية الله خالق العالم، والتشديد على التجسد والفداء من اجل خلاص الانسان الساقط في الخطيئة. وتوضيح هذه النقاط كان ضربة قاضية

للغنوصية وللغنوصيين على حدّ سواء، اذ ان الكنيسة لملمت شملها بعد ان كان الانقسام يزر رماده، في الشرق والغرب، على أعين المؤمنين ويدفعهم الى الشك بحقيقة الايمان. فالكنيسة، مع ايريناوس، حدّدت مفاهيمها اللاهوتية، والغنوصية تلاشت رويداً رويداً الى ان غابت نهائياً عن الساحة الى الأبد.

اما على الصعيد اللاهوتي، فان ايريناوس قد اعتبر مؤسّس اللاهوت المسيحي، لا بتجديده له، بل بتعلقه بالتقليد وباغنائه، وبشرحه، وبتحديده لقانون الايمان بشكل قاطع. اننا نجد عنده العقيدة والمنهج لشرح هذه العقيدة. وبهذا المعنى يقول اللاهوتي «غالتيه» (Galtier): «إن امثولة المنهج لا تقوم على ان نكره المجدّدين ونحتقرهم لأنهم ضدّ قانون الايمان، بل على الغوص في معرفتهم وفي الطرق التي يستعلمونها لايصال هذه المعرفة. ولكن، عندما نكشف عن عدم ثبات افكارهم، فانه من الضروري اعلان تجانس العقيدة المنقولة إليهم، والطريقة التي يجب ان تعلن بها، وتوضيحها، وتأملها، تحت نظر الكنيسة التي تسلمتها. فالثقة «بموهبة الحقيقة» وحدها هي التي تجعل الكنيسة غير فاسدة، وهذا، بكلمة، ما بشر به القديس ايريناوس في حياته وفي مؤلفاته وفي نهجه. إنه الاول والوحيد من بين الآباء الاولين الذي اعطانا عرضاً كاملاً للاهوت الكاثوليكي. ونظراً الى ان مؤلفاته الاخرى قد فقدت،

وخصوصاً كتابه «عن العلم» الذي يذكره المؤرخ «اوسابيوس القيصري» في «التاريخ الكنسي»، ٥، ٢٦، ويقول عنه «إنه كتاب مقتضب ولكنه ضروري»، فان كتابيه «ضد الهرطقات» و«توضيح التعليم الرسولي» هما نوع من خلاصة لاهوتية للقرون الاولى للمسيحية. وليس وحسب ان ايريناوس يطرح مواضيع سيتناولها اللاهوت لاحقاً، وبالتالي يعلق على مواضيع حيوية، بل له الفضل ان يعطي المسيح المكانة التي له بحق، والتي لم تكن واضحة قبلاً» (غالتيه: الاسقف الملفان: ايريناوس اسقف مدينة ليون، مجلة «دراسات» باريس، ١٩١٣، المجلد ١٣٦، ص ٢٢٠). كذلك اللاهوتي «بوزار» (Bauzart) يقول فيه: «ان تعليم ايريناوس عن المسيح هو حجر الزاوية لكل منهجيّة لاهوتية. ولقد شعر بذلك بعمق حتى أنه أفرز لهذا الأمر دراسة وافية. وان هذه النقطة من منهجه اللاهوتي هي بحق مميّزة» (بوزار: محاولة في لاهوت ايريناوس، باريس، ١٩٠٨، ص ١٢٩).

نستنتج من كل ذلك ان هذا العظيم من «عظماء المسيحية في التاريخ» كان، ولم يزل، الرائد في كلّ ما كتب وعمل. فالقرن الثاني المسيحي هو قرن ايريناوس اللاهوتي، وهو الذي طرح أسس اللاهوت المنهجي الذي بنت عليه الكنيسة عقيدة المسيح الثابتة.

القسم الرّابع

مختارات مِن مؤلّفات إيرينا وسّ

١
وحدانية الله

«ليس هناك إله آخر سوى الذي صنعنا وجبلنا على صورته ومثاله. وان كلام الذين يعتقدون ان عالمنا قد خلق بواسطة الملائكة، او بواسطة قوّة اخرى، او بواسطة إله آخر، هو كلام لا قيمة له... والذين يتمسّكون، بقوّة، باله واحد صنع كلّ شيء بواسطة «كلمته»... وان كلّ كلمة خرجت منه هي الحقيقة بالذات، فهؤلاء هم ابناء الحق، شرط ان يقرأوا الكتب المقدسة بطريقة واعية ويتثقفوا على يد الكهنة الذين في الكنيسة لأنه على يد هؤلاء يصلون الى الحقيقة لأنهم ائتمنوا على تعليم الرسل».

(ضد الهرطقات، ٤، ٣٢، ١)

٢
الخلاص واحد كما الله واحد

«ليس هناك سوى خلاصٍ واحد للذين يؤمنون بالله الآب وبالله الكلمة الابن وبالله الروح القدس: فكما ان الله هوَ واحد في ثلاثة اقانيم، كذلك الخلاص هو واحد في الله الواحد في ثلاثة اقانيم. كذلك ليس هناك سوى

ابنٍ لله واحد يعمل ارادة الآب، وكذلك جنس بشري واحد تكتمل فيه اسرار الله».

(ضد الهرطقات، ٤، ٦، ٧)

٣
جديد التجسّد هو الله نفسه

«اذا تساءلتم: ما هو جديد تجسّد المسيح، وماذا حمل الينا في هذا التجسد؟ فليعلم الجميع ان جديده هو أنه أتى إلينا بذاته، هو الذي أُعلن عنه، وكل ما أُعلن عنه من قبل هو أنّه سيجدّد وسيحيي الانسان. واذا أُعلن عن مجيء الملك بواسطة خدامه الذين أرسلهم قبله، فما ذلك إلاّ ليهيّء الذين سيقبلونه كسيّد ومخلص. ولكن، عندما وصل الملك، وامتلأ خدامه بالفرح المعلن، ونالوا منه الحرية المنتظرة، وابتهجوا بمشاهدته، وسمعوا كلامه، وفرحوا بعطاياه، حينئذٍ، وبالنسبة الى العاقلين، لا يطرح السؤال: ماذا حمل الملك من جديد بالنسبة الى اعلان مجيئه، لأن جديده هو ذاته، وهو ايضاً النعم التي حملها للبشر، والعطايا المعلنة منذ قبل التي اراد المبشرون ان يتأملوها بحرارة».

(ضد الهرطقات، ٤، ٣٤، ١)

٤
التجسّد جعل الانسان شبيهاً بالمسيح وكريماً في عيني الله

«كلمة الله صار انساناً وشابه الانسان لكي يصبح الانسان كريماً في عيني الله من خلال هذه المشابهة. ففي القديم قيل: لقد صنع الانسان على صورة الله ومثاله، ولكن ذلك لم يكن ظاهراً لأن الكلمة نفسه لم يكن ظاهراً، ومن اجل هذا السبب لم يكن التشابه واضحاً، او بالاحرى قد فقد. ولكن، عندما تجسّد كلمة الله أكد على التشابهين معاً: فلقد أظهر الصورة في كلّ حقيقتها وحقق التشابه بطريقة ثابتة اذ جعل الانسان مشابهاً للآب غير المنظور بواسطة الكلمة الذي أصبح منظوراً».

(ضد الهرطقات، ٥، ١٦، ٢)

٥
المسيح جدّد كلّ شيء في شخصه

«المسيح هو الذي جدّد كلّ الأمم المشتتة في شخصه انطلاقاً من آدم، وجدد لغات الشعوب واجيالها، وحتى آدم نفسه. لذلك قال القديس بولس الرسول «ان آدم هو صورة الذي كان مزمعاً ان يأتي» (روما، ٤، ١٤).

والكلمة، صانع الكون، قد وضع من قبل في آدم صورة التدبير الخلاصي للبشرية التي ستتجدّد بابن الله الذي حقق خلاص الانسان المادي بواسطة الانسان الروحاني».

(ضد الهرطقات، ٣، ٢٢، ٣)

٦
مريم المطيعة كفّرت عن حواء العاصية

«وإنَّنا لنَجدُ العذراءَ مريمَ مُطيعةً قائلة: «ها أنذا، يا ربُّ، أَمَتك، فَليكن لي بحسب قولك». إنَّ حواءَ قد عصت، وقد كانتْ عذارءَ عندما عصتْ. فان كانتْ حواءُ العذراءُ عروسة آدم، قد عصت واصبحت لها ولكل الجنس البشري سبب موت، فان مريم العذراء عروسةَ رجلٍ كانت مخطوبة له اصبحتْ بطاعتها، لها ولكل الجنس البشري، سبب خلاص.

إن الربَّ، بكرَ الراقدين، قد ضمَّ في باطنه آباءَه الأقدمين إذ أولدهم الى حياةِ الله، وقد اصبحَ رأسَ الاحياء، وآدمُ قد اصبح رأس الأموات. ولهذا السبب عينه سنجدُ لوقا يبدأ النسبة بالربِّ ليعود الى آدم ليدل على انه ليس الآباء هم الذين اعطوا الربَّ الحياة، انما بالعكس اذ هو الذي اولدهُم من جديد في بشارة الحياة.

إن العِقدة التي ربطتها حواءُ بعصيانها قدْ حلَّتها مريمُ بطاعتها. وإن ما ربطته حواءُ بعدم ايمانها قد حلته مريم العذراء بايمانها. وإن كانتِ الاولى (حواء) قد عصت الله، فالثانية (مريم) قد ارادتْ ان تطيعَ الله، حتى أنَّ العذراء مريم استطاعت ان تكون شفيعة العذراء حواء. وكما ان الطبع البشري قد اخضع للموت بسبب عذراء، فقد تحرَّر ايضاً بعذراء اذ كُفِّرَ عن معصية عذراءَ بطاعةِ عذراء».

(ضد الهرطقات، ٣، ٢٢، ٤)

٧
الافخارستيا عربون القيامة

«الرب اشترانا بدمه، على حدِّ قولِ الرسول: الذي لنا فيه الفداء، بدمه مغفرةُ الزلّات. وإننا أعضاؤه، نتغذّى من المخلوقات، وهو نفسه يعطينا المخلوقات، فيُطلع شمسه، ويسكب غيثه، كما يشاء. إن تلك الكأس المخلوقة هي دمه المُهراق الذي يغذي دمنا، وذاك الخبز المخلوق هو جسده الذي يغذي أجسادنا.

فمتى تَقبَلِ الكأس الممزوجة، والخبزُ المكسور، كلمة الله، تُصبح إفخارستيا اي دم المسيح وجسده، منهما يتغذى وبهما يقومُ جسدنا وجوهر كياننا. كيف

يُنكر قومٌ أن يكونَ الجسد جديراً بعطيَّة الله التي هي الحياة الأبدية، ذاك الجسد الذي تغذى بدم المسيح وجسده، وصار عُضواً للمسيح؟ وكما يقول بولس الرسول لأهل أفسس: فإنَّا أعضاء جسده من لحمه ومن عظامه. فلا يقول ذلك عن إنسانٍ روحيٍّ غير منظور: فإنَّ الروحَ لا لحم له ولا عظام؛ بل عن كيان إنسانٍ حقيقيٍّ من لحم وعصبٍ وعظام، يتغذى من كأسٍ هي دم المسيح، ومن خبزٍ هو جسدُ المسيح.

وكما أنَّ جذعَ الكرمة يُغرزُ في الأرض فيؤتي ثمره في حينه، وحبَّةَ الحنطة تقعُ في الأرض وتموتُ فتنبتُ حباتٍ كثيرة، بروح الله حاوي الجميع، وبحكمة الله يصيران حينئذٍ في خدمةِ الانسان، وحينَ يَقبلان كلمة الله يصبحان إفخارستيا، أي جسدَ المسيح ودمه، كذلك أجسادنا التي تتغذّى به، ولو دُفنت في الأرض وماتت فيها، فستقوم في حينها، بقوة كلمة الله، الى مجدِ الآب الذي يمنحُ المائتَ اللاموت، ويُنعم على الفاسد باللافساد. لأن قوة الله تكمل في الوهن، لئلا ننتفِخَ ونفتخر على الله، كأنَّ الحياة منا، جاحدين جميله علينا، بل لنتعلم من الاختبار ان البقاء في الخلود هو من الله، لا من طبعنا، فلا نضلَّ في ما هو من طبع الله، ولا نجهل ما هو من طبعنا».

(ضد الهرطقات، ٥، ٢، ٢ ـ ٣)

٨
ايمان الكنيسة الواحد

«ان الكنيسة، على انتشارها في العالم كله، من اقاصي الأرض الى أقاصيها، قد نالت من الرسل وخلفائهم الايمان باله واحد، آب ضابط الكل، خالق السماء والأرض والبحار وما عليها، ونالت ايضاً الايمان بيسوع المسيح الواحد ابن الله المتجسد لأجل خلاصنا؛ وبالروح القدس الواحد... أجل هذه هي البشارة التي نالتها الكنيسة: وهي الايمان، كما قلنا؛ وعلى انتشارها في العالم كله، فهي تحفظُ هذا الايمان بكل دقة كأنها تعيش في مكان واحد، وتؤمنُ ايماناً واحداً، كأنَّ لها قلباً واحداً وروحاً واحداً. وباتفاق تام تُبشر بهذا الايمان وتعلّمه وتمنحه، كأنَّها تملك للنطق به فماً واحداً.

اللغات على الأرض مختلفة، ولا شكَّ، لكن قوة التقليد واحدة ومتشابهة؛ وكما ان الكنائسَ المؤسسة والمنتشرة في العالم كله تُؤمن ايماناً واحداً، كالشمس، خليقة الله، التي هي نفسها تشعُّ على العالم كلّه، كذلك البشارة بالحقيقة تنير كل الذين يريدون معرفة هذه الحقيقة.

إن التعليم واحد، إن تفوَّه به رسولٌ كبير او تلميذ صغير، لأنَّهُ لا يفوق علمٌ بشري تعاليم المعلم. وبما ان

الايمان واحد، فلا كثرة الكلام تغنيه ولا قلته تفقره».

(ضد الهرطقات، ١، ١٠، ١)

٩
ايمان واحد وتقليد واحد

«هذا هو التعليم الذي تسلمته الكنيسة، هذا هو الايمان الذي تحرص على الاحتفاظ به، رغم انتشارها في العالم كله، كأنَّها تسكنُ في بيتٍ واحد. انها تؤمن بكلِّ هذا، كأن ليس لها سوى نفس واحدةٍ وقلبٍ واحد؛ وينطبق على هذا الايمان تبشيرها وتعليمها وتقليدها، كأنَّ ليس لها سوى فم واحد. تختلفُ اللغات التي ينطقون بها في العالم، غير ان قوة التقليد هي واحدة في كلِّ مكان. ليس للكنائس المنشأة في جرمانيا، ايمانٌ آخر ولا تقليد آخر، ولا للمنشأة في قلب العالم وسلتيا ولا للشرق ولمصر وليبيا، ولا للمنشاةِ في قلب العالم فلسطين. وكما أنَّ الشمس، خليقة الله هذه، هي ذاتها في كلِّ العالم، هكذا التبشير بالحقيقة، يلمع هو عينه في كلِّ مكان، ويُنير سائر الناس الذين يريدونَ ان يصلوا الى معرفة الحق».

(ضد الهرطقات، ١، ١٠، ٢)

١٠
الجهل مع محبة الله أفضل من العلم بعيداً عنه

«إنه لمن الأفضل والأجدى ان يكونَ الانسان جاهلاً او قليل العلم، ويقترب من الله بالمحبة، من أن يبدو وافر المعرفة ويجدِّف على الرب. لقد احسن بولس في قوله: «العلم ينفخ والودُّ يبني». ولا يتَّهمُ بهذا العلم الالهي الصحيح ـ والاَّ لناقض نفسه ـ، بل لأنه كان يعرف أنَّ بعضاً، بحجة العلم، يتكبَّرون ويخسِرون محبَّة الله...

خيرٌ لنا ان لا نعرف شيئاً البتة، وحتى اسباب الأمور ودواعيها، وان نؤمن بالله ونثبتَ في محبته، احرى من ان نستسلم للكبرياء بحجة العلم ونخسر هذا الحب المحيي للانسان.

خيرٌ لنا ان لا نفتش عن علم خارجاً عن يسوع المسيح ابن الله، المصلوب لأجلنا، ولا نسقط في الكفر، وبتعلُّقنا بمشاكل دقيقة وعويصة».

(ضد الهرطقات، ٢، ٢٦، ١)

مُلحَق

هذا الملحق يقسم الى ثلاثة أقسام. الاول: المجامع المسكونية. والثاني: معجم الكلمات التي وردت في الكتاب او سترد في الموسوعة. والثالث: الالفاظ اليونانية والسريانية المتداولة كنسيّاً. وسيكون ثابتاً في جميع كتب الموسوعة تعميماً للفائدة. ولا بُدَّ من كلمة شكر للّذين رجعنا إليهم في مؤلفاتهم ومعاجمهم أو أخذنا عنهم لتحقيق هذا الملحق باقسامه الثلاثة.

ملحق أول

المجامع المسكونية

١ ـ **مجمع نيقيا ٣٢٥:** حرم آريوس الذي أنكر ألوهية يسوع المسيح ووضع قانون الايمان.

٢ ـ **مجمع القسطنطينية الاول ٣٨١:** حرم مقدونيوس والماسيدونيين الذين ينكرون ألوهة الروح القدس ومساواته للآب والابن في الجوهر.

٣ ـ **مجمع أفسس ٤٣١:** حرم نسطوريوس الذي أنكر ان تكون مريم العذراء أم الله.

٤ ـ **مجمع خلقيدونية ٤٥١:** حدّد طبيعتي المسيح الالهية والانسانية وحرم اصحاب الطبيعة الواحدة.

٥ ـ **مجمع القسطنطينيّة الثاني ٥٥٢:** شجب نسطوريوس واوريجانوس.

٦ ـ **مجمع القسطنطينيّة الثالث ٦٨٠ـ ٦٨١:** شجب المونوتوليّة او مذهب المشيئة الواحدة.

٧ ـ **مجمع نيقيا الثاني ٧٨٧:** شجب محاربي الايقونات.

٨ ـ **مجمع القسطنطينية الرابع ٨٦٩ ـ ٨٧٠:** عزل فوتيوس عن كرسي بطريركية القسطنطينيّة.

٩ ـ **مجمع لاتران الاول ١١٢٣:** تدخل في مسألة الرتب الكنسيّة. وقد نشأت المسألة من جرّاء الصراع العنيف الذي قام بين البابوية وأباطرة المانيا حول سيامة الأساقفة. واستمرّ من سنة ١٠٧٤ ـ ١١٢٢، وبلغ أشدّه ايام غريغوريوس السابع والأمبراطور هنري السابع، وانتهى بمبدأ الفصل بين السلطتين. فالسلطة الزمنيّة يمنحها الأمبراطور والسلطة الروحية يمنحها البابا.

١٠ ـ **مجمع لاتران الثاني ١١٣٩:** شجب السيمونيا (بيع الرتب الكنسية) وسوء استعمال السلطة الروحية، ونصح بعدم زواج الكهنة.

١١ ـ **مجمع لاتران الثالث ١١٧٩ـ١١٨٠:** اتّخذ اجراءات اوّلية ضد بدعة الكاثار.

١٢ ـ **مجمع لاتران الرابع ١٢١٥:** شجب بدعة الألبيجوا (او الكاثار) وحدّد عقيدة الاستحالة الجوهرية ونظم قوانين الكنيسة.

١٣ ـ **مجمع ليون الاول ١٢٤٥:** ضدّ فردريك الثاني.

١٤ ـ **مجمع ليون الثاني ١٢٧٤:** وهو محاولة للتقارب مع الكنيسة الشرقية، واتحاد الكنائس.

١٥ ـ **مجمع ڤيينا ١٣١١ ـ ١٣١٢:** حلّ منظمة الهيكل.

١٦ ـ **مجمع كونستانس ١٤١٤ ـ ١٤١٨:** وضع حدّاً للانشقاق في الغرب، وشجب جان هوس.

١٧ ـ **مجمع فلورنسا ١٤٣٨ ـ ١٤٤٥:** وهو محاولة للتقارب من جديد مع الكنيسة الشرقية، ضمن مخطّط اتحاد الكنائس.

١٨ ـ **مجمع لاتران الخامس ١٥١٢ ـ ١٥١٧:** محاولة اصلاح الاكليروس، وتحديد خلود النفس. ولكن محاولة الاصلاح كانت فاشلة.

١٩ ـ **مجمع ترانت (التريدنتيني) ١٥٤٥ ـ ١٥٦٣:** اصلاح الكنيسة الكاثوليكية: قرارات عقائدية حول الخطيئة الأصلية والتبرير والأسرار، وحرم البروتستانت.

٢٠ ـ **مجمع الفاتيكان الأول ١٨٦٩ ـ ١٨٧٠:** حدد موقف الكنيسة من الايمان والمذهب العقلاني وأعلن عصمة البابا.

٢١ ـ **مجمع الفاتيكان الثاني: الدورة الاولى:** من ١١ تشرين الاول الى ٨ كانون الاول ١٩٦٢.

الدورة الثانية : من ٢٩ أيلول الى ٤ كانون الاول ١٩٦٣.

الدورة الثالثة : من ١٤ أيلول الى ٢ تشرين الثاني ١٩٦٤.

الدورة الرابعة : من ١٤ أيلول الى ٨ كانون الاول ١٩٦٥.

حضر هذا المجمع ٢٣٠٠ اسقف وتألف من ١٢ لجنة، واستغرق ١٤٠ جلسة، واجرى حوالي ٥٥٠ تصويتاً.

نتائجه: ٤ دساتير و ٩ مراسيم و ٣ اعلانات. النص الاساسي: دستور عقائدي للكنيسة. اما باقي النصوص فموزعة على مجموعتين:

١ ــ **وثائق التجديد:** قرارات في رسالة العلمانيين والاساقفة والرسالات. ودستور عقائدي في الوحي والليتورجيا.

٢ ــ **وثائق الحوار:** مع غير الكاثوليك، وغير المسيحيين، وغير المؤمنين، ومع العالم أجمع.

٣ ــ **أسس الحوار ووسائله:** الحرية الدينيّة، الكنيسة وعالم اليوم ــ وسائل الاعلام الاجتماعية.

ملحق ثانٍ

نثبت هنا ترجمة بعد كلمات وردت في هذا الكتاب او سترد في هذه الموسوعة تعميماً للفائدة:

١ ــ **أبولوجيست** (Apologiste): أسم أطلق على أناس كانوا يتوجهون بكتاباتهم الى الملوك والحكام والمنفذين دفاعاً عن الايمان، فهم محامو الايمان المسيحي.

٢ ــ **آريوس** (Arius): كاهن من الاسكندرية (٢٨٠ ــ ٣٣٦) ومؤسس الأريوسية التي أنكرت ألوهية المسيح. شجبه وحرمه مجمع نيقيا سنة ٣٢٥ مسيحية.

٣ ــ **أركان** (Arcane): بالنسبة الى التاريخ الكنسي هي عملية اطلاع الموعوظين تدريجيّاً على عقيدة الكنيسة.

٤ ــ **الأيكزومولوجيز** (Exhomologèse): هو الاعتراف العلني امام الجمهور وقبول العقوبة المفروضة منه.

٥ ــ **باتريباسيان** (Patripatiens): صالبو الأب او الأبوية، وهو مذهب اولئك الذين يعتقدون ان الصلب وقع على الثالوث كله بشخص المسيح.

٦ ـ **المختارون المرذولون** (Pistiques Hyliques): كان معتنقو هرطقة الغنوصية يقسمون المسيحيين الى ثلاث فئات: الغنوصيون وهم النخبة ويخلصون بنعمة سامية، والبيستيك المختارون ويخلصون بواسطة الأسرار والأعمال الصالحة، وأخيراً الهليك او المرذلون وهم هالكون لا خلاص لهم لأنّ فيهم يستقر عنصر الشرّ.

٧ ـ **البلاجيانية** (Pélagianisme): هرطقة من القرن الثالث تنتسب الى الراهب بلاجيوس، وتعتبر الحرية قيمة مطلقة وتؤمن بامكانية بلوغ الكمال على الأرض وتنكر مفعول النعمة والخطيئة الأصلية.

٨ ـ **البيغار** (Bégards): أسم أطلق على الهراطقة الذين ظهروا في القرن الثالث عشر وكانوا يرتدون لباساً على الرأس يحمل هذا الأسم ويعيشون من الاحسان.

٩ ـ **بيغين** (Beguine): اخويات المتعبّدات، وقد أطلق هذا الأسم على راهبات من بلاد الباسك وكنّ يعشنَ في أنواع من الأديرة دون التقيّد بالنذور الرهبانية، ولكلّ واحدة طريقة حياة خاصة. ولقد أصبح الأسم يعني المتعبدات الكاذبات، أو

تصنّع العبادة.

١٠ ـ **التيتونية** (Teutonique): رهبانية فرسان عسكرية المانية أسسها الصليبيّون في اورشليم سنة ١١٢٨ مسيحية. ولكنها مارست نشاطها على الأخصّ في المانيا وانضمّ اليها في سنة ١٢٣٧ فرسان جماعة «السيف» لنشر الثقافة الجرمانية في بروسيا. وتحطّمت قواتها في تانانسبرغ سنة ١٤١٠، واستمرّ منها بقية في النسما بأسم «الوشاح الأسود».

١١ ـ **الديناميون** (Dynamistes): هرطقة اولئك الذين يعتقدون ان المسيح ليس سوى مظهر لقدرة الله، وينكرون التجسّد. يعود تاريخ وجودها للقرن الثالث المسيحي.

١٢ ـ **الدوسيتيّة** (Docétisme): هرطقة من القرن الثالث عشر تدّعي ان يسوع لم يكن له إلاّ مظهر الجسد، متأثرة بذلك بالفكر اليوناني.

١٣ ـ **الدوناتية** (Donatisme): هو مذهب الدوناتيين الذين ينتسبون الى دونات اسقف قرطاجة الذي أعلنته الكنيسة مبتدعاً وعزلته من منصبه في القرن الرابع المسيحي. وأصحاب هذا المذهب يعتبرون أنفسهم ورثة الرسل الوحيدين.

١٤ ـ **الدياسپورا** (Diaspora): كلمة تعني الشتات. والمقصود بذلك اليهود المشتتين . خارج فلسطين لأسباب سياسية (إبعاد او نفي Déportation)، او لأسباب اقتصادية (الهجرة Emigration).

١٥ ـ **الغنوصية** (Gnosticisme): احدى هرطقات القرن الثالث المسيحي، وهي تدعي ان معرفة علم الخلاص مختلفة عن الايمان ومحصورة بفئة قليلة، أعني بالنخبة. وكذلك تدّعي انها على علم تام بجوهر الطبيعة وخصائص الله. وهي قريبة من الافلاطونية والمانوية.

١٦ ـ **الكاثار** (Cathares ou Albigeois): المطهّرون: هم ورثة المانويين الذين، بعد شجبهم، التجأوا الى أرمينيا في آسيا، ثم عادوا الى أوروبّا (ألبانيا، بلغاريا، لومبارديا، وتولوز في فرنسا). وهم يرفضون الأسرار، والطقوس الليتوريجية، والسلطة الكنسية، وحقّ التملّك، وينكرون المطهر وقيامة الموتى. ويحبّذون الانتحار الذي يحرّر الروح من الشرّ. شجبهم مجمع ألبي ومجمع لاتران سنة ١١٧٩ مسيحية. وقد تمّ القضاء عليهم بعد حرب صليبيّة دامت عشرين سنة، أقرّها إينوشنسيوس الثالث بقيادة سيمون

دي مونفور، ثم لويس الثامن.

١٧ ـ **مارسيون** (Marcion): هو تاجر غني من سينوب (Sinope) على ضفاف البحر الأسود. أسّس كنيسة خاصة في روما سنة ١٤٦ مسيحية. ولقد تأثر بالخلاف القائم بين العهد الجديد والعهد القديم فرفض العهد القديم لأنه وجد فيه تناقضاً «بين إله العهد الجديد، إله المحبة الذي ظهر لنا بشخص يسوع، وبين إله العهد القديم، إله الحقد والجريمة، خالق عالم الشرّ». ولقد حارب تعليمه وعقيدته ترتوليانوس.

١٨ ـ **المانوية** (Manichéisme): هرطقة من هرطقات القرن الثالث المسيحي، أسّسها ماني أومانيس (٢١٦ ـ ٢٧٧)، وتقول بمبدأين إلهيّين: إله الخير وإله الشرّ.

١٩ ـ **المونار كيانية** (Monarchianisme): وهو المذهب الكاثوليكي المستقيم القائل بوحدة الله في الاقانيم الثلاثة دون جعلهم ثلاثة آلهة او إخضاع أحد الأقانيم للآخر.

٢٠ ـ **المونتانية** (Montanisme): هرطقة من هرطقات القرنين الثالث والثاني. أسّسها كاهن فريجي يدعى مونتان (Montan). اتباعها اعتبروا أنفسهم

الكنيسة الجديدة، وأنكروا السلطة الكنسية، ودعوا الى مناقبية صارمة، وأعلنوا ان نهاية العالم قريبة. ولقد التحق بهم ترتوليانوس سنة ٢٠٧ مسيحية.

٢١ ـ **المودالیست** (Modaliste): المشبهة او النمطيّة. هرطقة تدّعي ان الله باستطاعته ان يتّخذ جميع الأشكال. من آثارها ما ورد في القرآن عن المسيح: ولم يصلبوه، وانما شبّه به لهم. ويعني ذلك ان المسيح كونه الله لم يقع عليه الصلب، انّما الذي صُلب هو شخص شبيه بالمسيح.

٢٢ ـ **الموعوظية** (Catéchuménat): وهي المدّة التي كان يحتاجها المقبل على اعتناق الديانة المسيحية ليصبح أهلاً لتقبّل الأسرار، إذ كان عليه ان يخضع لتجارب وتعاليم خاصة بالموعوظين، ولم يكن من حقّه حضور القداس بكامله بل القسم الاول منه.

٢٣ ـ **الميتانويا** (Métanoia): وتعني الارتداد، وهو تبديل تام في المواقف الفكرية والقناعات الوجدانية.

٢٤ ـ **الألفيّة** (Millénarisme): هو مذهب بعض الكتاب المسيحيين من القرون الاولى للمسيحية وبعض الهرطقات اللاحقة التي كانت تؤمن ان المسيح سيعود الى الأرض ليملك مدّة ألف سنة قبل قيامة الموتى.

٢٥ ـ **المحسوبية** (Népotisme): امتياز كان يتمتّع به، لدى البابوات، اولاد (ابناء الأخوة) او انسباؤهم، بشكل خاص، او عائلاتهم بشكل عام. وهو يعني، في النهاية، استعمال السلطة لمصلحة الأقارب.

٢٦ ـ **الاغتباطية** (Quiétisme): الكلمة من أصل لاتيني معناه الهدوء. وهو مذهب صوفي يجعل الكمال المسيحي في محبّة الله وجمود النفس دون اعمال خارجية. وكان لهذا المذهب ممثلون في كل العصور، أشهرهم الاسباني مولينوس Molinos، وقد نشر، في القرن السابع عشر، كتاباً عن الزهد يجعل من الديانة شيئاً مثالياً صعب الفهم على العامة. امّا في فرنسا فقد تبنّت رأي مولينوس إمرأة شهيرة هي مدام غويون Guyon المتعبّدة، وألّفت كتاباً في الموضوع ذاته سنة ١٦٨٥، كما دعمها فينيلون Fénelon في كتابه شرح آراء القديسين، فهاجمه بوسويه

Bossuet ومدام دي منتينون Maintenon، وحرم البابا كتابه، فاستجاب فينيلون لنداء البابا واعتزل الحياة العامة، فانطفأ المذهب نهائياً ابتداءً من سنة ١٦٩٣.

٢٧ ـ **التصوّف او الصوفية** (Mysticisme): هو معرفة مباشرة وتجريبيّة لله، او بالأحرى هو حالة تختبر فيها النفس الله اختباراً مباشراً. وفي رأي برغسون Bergson المتصوّف هو من يفتح طريق الدين الديناميكي ويرى الله مباشرة، أو على الأقل يدركه بواسطة تماس مباشر داخلي. والعقل عاجز عن ادراك الله، فالله لا يدرك إلاّ بواسطة حدس. والمتصوف يجد في تعاليم اللاهوتيين الألفاظ والصور التي يمكنه ان يترجم بواسطتها ما يشعر به ويشاهده داخلياً. اما التجربة الصوفية فلا تقدم لنا أية معلومات عن طبيعة الله. فالله محبة، وهو موضوع المحبة، ومحبة الله ليست شيئاً من الله، بل هي الله ذاته.

٢٨ ـ **الاسميّة** (Nominalisme): او المذهب الاسمي، وهو يقول ان الكلمة الكليّة مجرّد اسم ولا مسمّى له في ذاته، اي انها إسم لا يشير الى «تصوّر» في عقل الانسان (كما هو مذهب التصوّريين وعلى رأسهم أرسطو)، ولا هي تشير الى مسمّى في

الكون الخارجي (كما هو مذهب الشيئيين او الواقعيين وعلى رأسهم افلاطون).

٢٩ ـ **الاوراتوار** (Oratoire): جمعية رهبانية أسّسها القديس فيليبّوس النيري في روما سنة ١٥٦٤ ونقلها الى فرنسا الكاردينال بيرول سنة ١٦١١. وقد قدّمت لفرنسا أساتذة وعلماء وواعظين عظماء جداً.

٣٠ ـ **الأكامية** (Occamisme): المذهب المنسوب الى غيوم دوكام، وهو راهب فرنسيسكاني انكليزي من أشهر علماء اللاهوت المدرسي وأكبر المدافعين عن مذهب الأسمية، وقد لقب بالدكتور الذي لا يقهر، وهو أبو المذهب الاختباري الذي يعتبر ان كل معرفة تقوم على التجربة.

٣١ ـ **الأنغليكانية** (Anglicanisme): الديانة الرسمية لانكليترّا. ويعود تاريخها الى الملك هنري الثامن الذي قطع علاقته بالبابا لأنه لم يوافقه على فسخ زواجه من كاترين داراغون. والملك هو رئيس الكنيسة الانغليكانية. ومع ان أعضاء هذه الكنيسة اعتنق بعضهم البروتستانتيّة، فانها حافظت على نقاط التقاء كثيرة مع الكنيسة الكاثوليكية، واهمها تسلسل السلطة.

٣٢ ـ تجديديّ العماد (Anabaptistes): هم شيعة من الهراطقة الالمان من اوائل القرن السادس عشر، وأكثر المنتمين إليها من القرويّين، وقد قضى عليها الأشراف الألمان بقيادة لوثير، في يوم فرانكينهوزن سنة ١٥٢٥.

٣٣ ـ الاوفكلارونغ (Aufklerung): عصر الانوار، وهو تيار فكري كان سائداً في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في فرنسا وأهم ممثليه فولتير والموسوعيون.

٣٤ ـ سان ـ بارتيليمي (Saint Barthélemy): وهي مذبحة البروتستانت ايام شارل التاسع في فرنسا بأمر كاترين دي ميديسيس وآل غيز ليلة ٢٣ آب ١٥٧٢. وقد حدثت المذبحة في اليوم الثاني لاحتفالات زواج هنري دي نافار الذي أصبح هنري الرابع، ومارغريت أخت شارل التاسع. وبدأت المذبحة في باريس على قرع الاجراس. وكانت نتيجتها الحرب الأهلية الخامسة.

٣٥ ـ الترابيست (Trappistes): رهبانية اوروبيّة. من ممارساتها الصمت، والمحافظة على السكوت المطلق دائماً، والانقطاع للتأليف والصلاة. أسّسها سنة ١٦٦٤ أرمان دي رانسي في النورماندي الفرنسيّة.

٣٦ ـ الجانسينيّة (Jansénisme): انه المذهب المنسوب الى جانسينيوس الهولاندي والمعروض في كتابه «الأغوسطينوس»، وهو يحدّ من حرية الانسان. ومن انصاره سان سيران وأرنولد وپيير كيني في فرنسا. وقد قام صراع بين اليسوعيين وجماعة پور رويال وعلى رأسهم پاسكال حول الموضوع. ولكن هذا المذهب انتهى بعد هدم دير پور رويال، ولا تزال كنيسة صغيرة في هولاندا تدين به.

٣٧ ـ الجوزيفيّة (Joséphisme): طريقة في التفكير والحكم منسوبة الى الامبراطور جوزف الثاني الالماني النسماوي الذي شجّع الافكار الفلسفية في القرن الثامن عشر وحاول اصلاحاً في امبراطوريته ففشل، ويسمّى مذهبه ايضاً «المذهب الاستبدادي المستنير».

٣٨ ـ الدييت (Diète): مؤتمر سياسي على شكل جمعية وطنية كان يتمّ دورياً في مدن الامبراطورية الالمانية وفيه تجري مناقشة القضايا العامة. وأشهر هذه المؤتمرات مؤتمر أوغسبورغ سنة ١٥١٨ وورمس سنة ١٥٢١، وامامه إمتثل لوثر، ونورامبرغ سنة ١٥٣٢...

٣٩ ـ الدروينيّة (Darwinisme): نسبة الى مذهب

داروين البيولوجي والفلسفي. والدروينية تعني، في مقابل التطورية العامة، مذهب الاستحالة الذي يقول بأن الانواع يخرج الواحد منها من الآخر، وبان النوع الانساني خرج من الانواع الحيوانية، ولكن دون عرض فرضية عن أصل الحياة او الاتجاه العام لنموّها. وفي مقابل نظرية لامارك وسبنسر المؤلفة من جراء التمرين والوراثة فهي نظرية استحالة الانواع وترجع اصلاً الى الانتخاب الطبيعي.

٤٠ ـ **زوانكل** (Zwingle): هو اورليك زوانكل. مصلح سويسري، ولد في ولدهاوس قرب سان جيل. دعا الى إلغاء عزوبية الكاهن والقداس. إجتاح مذهبه قسماً كبيراً من سويسرا. وبعد موته إنضمّ اتباعه الى اتباع كالڤن ولوثير (١٤٨٤ ـ ١٥٣١).

٤١ ـ **السكرمانتاريون** (Sacramentariens): شيعة من اتباع لوثير رفضوا الايمان بالحضور الالهي الحقيقي في الافخارستيا.

٤٢ ـ **الشارترو** (Chartreux): رهبانية اوروبية إهتمّت بحياة النسك والتقشّف، واتّبعت قانون القديس مبارك. أسّسها القديس برونو دي كولوني سنة ١٠٧٤ في وادٍ جبلي يدعى Cartusio.

٤٣ ـ **صراع الثقافة** (Kulturkamph): وهو الصراع الذي قام بين الدولة البروسية والكنيسة الكاثوليكية في اواخر القرن التاسع عشر حول الاشراف على الثقافة.

٤٤ ـ **الغاليكانية** (Gallicanisme): مذهب يدافع عن امتيازات الكنيسة الفرنسية وحريتها ومبادىء سلوكها بالنسبة الى الكرسي الرسولي مع استمرارها شديدة الارتباط بالايمان الكاثوليكي. ويضع العصمة، ليس في البابا وحده، بل في جسم الاساقفة كله المتحد برئيسه. ويدافع عن سلطة المجامع العاملة المطلقة، ويفصل بين السلطة الزمنية. وقد جُمعت هذه المباديء في بيان اكليروس فرنسا الذي كتبه بوسويه سنة ١٦٧٢. ولكن اعلان عصمة البابا في المجمع الفاتيكاني سنة ١٨٧٠ شجب الغاليكانية.

٤٥ ـ **غراڤامينا** (Gravamina): وثيقة بالشكوى التي قدمتها الأمة الالمانية الى السينودس الاقليمي في مايانس ١٤٥٥ حول الضرر الحاصل للكنيسة الالمانية من جانب الكوريا الرومانية.

٤٦ ـ **فودوا** (Vaudois): شيعة تنسب الى مؤسسها پيير فالدو (القرن الثاني عشر)، وقد قضى على القسم الأكبر منهم فرانسوا الأول. إشتهروا بصلابة

الاخلاق، وما تزال لهم بعض الكنائس في ايطاليا.

٤٧ ـ **فلسفة علم الظواهر** (Phénoménologie): او مذهب القائلين بالظواهر، ويستعمل بمعنيين: الاول بمعنى النظرية القائلة بان علمنا بالاشياء مقصور على معرفة الظواهر دون حقائقها. والثاني بمعنى النظرية القائلة ان كل ما نعلمه ظواهر، وان الظواهر هي كلّ شيء في الوجود، ومعنى الظاهرة في هذه النظرية هو الحقيقة الماثلة امام العقل، اما مباشرة او بطريق الاستنتاج.

٤٩ ـ **كالڤن** (Calvin): هو جان كالڤن المولود في نوايون وناشر الاصلاح في فرنسا وسويسرا، ورئيس الكالڤانيين. مات في جنيف بعد ان اقام جمهورية بروتستانتيّة (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤). يمتاز مذهبه عن المذاهب البروتستانتية بديمقراطية السلطة الدينية وإلغاء الاحتفالات، ونفي التقليد المطلق وعقيدة الاختيار وقبول العماد والعشاء السرّي من الأسرار، ويطلق على اتباعه إسم هوغونوت في فرنسا. مذهبه منتشر في سويسرا وهولاندا وهنغاريا.

٥٠ ـ **الكانتية** (Le kantisme): مذهب الفيلسوف الالماني عمنوئيل كانت، مؤلف نقد العقل الصافي والعقل العملي، نقد الحكم (١٧٢٤ ـ

١٨٠٤) وهو دراسة وصفيّة كما تتراءى لنا في الزمان والمكان خلافاً لدراسة القوانين المجرّدة والثابتة التي تنظم الظواهر، وخلافاً لدراسة الحقائق العالية التي تكوّن الظواهر تبديات لها، وخلافاً للنقد المعياري الذي يتطرّق لشرعية هذه الظواهر.

٥١ ـ **التحرّرية** (Libéralisme): او المذهب الحرّ. أشهر مؤسّسيه الفيلسوف كوك، ويعتبر ان العلاقة الطبيعيّة بين الناس علاقة كائن حرّ بكائن حرّ تؤدّي الى المساواة. حق الناس ينحصر في تنمية حريتهم والدفاع عنها وعن كل ما يلزم من حقوق.

٥٢ ـ **التاريخانية** (Historicisme): تعني ان وضعنا كموجودين يدفعنا الى استخدام حريتنا في نزوع نحو المستقبل رغم اننا موجودون في الزمن ومرتبطون ارتباطاً وثيقاً بالماضي. فالتاريخانية اذن ملتصقة بالوجود البشري بصفته مندمجاً بالحينونة الخاصة.

٥٣ ـ **التجديديّة** (Modernisme): حركة في الفكر الكاثوليكي معارضة للطريقة القديمة التي كان يمثلها «الوجوديون» أتباع القديس توما وسكوت، سعت الى تأويل تعاليم الكنيسة على

ضوء المفاهيم الفلسفية والتاريخيّة العصرية.

٥٤ ـ **الذاتانيّة او المذهب الذاتي** (Subjectivisme): وهي تعني من الناحية الميتافيزيائية المذهب الذي يرجع كل الوجود الى الذات ويقول ان الاشياء الخارجية لا وجود لها إلاّ في الذات، وهو المذهب المثالي عند فخته وشلنغ. امّا من الناحية المنطقية فهي تعني المذهب القائل ان معيار الحقيقة ليس معياراً موضوعياً، بل هو معيار ذاتي بالنسبة الى الذات المدركة. ومن الناحية الاخلاقية تعني المذهب القائل ان اللّذات والسعادة الفردية والنفع على وجه العموم يجب ان يكون المعيار الذي تقاس به الأشياء الاخلاقية. ومن الناحية النفسية تعني المذهب القائل ان التجربة في علم النفس يجب ان تكون تجربة باطنية.

٥٥ ـ **مذهب العيانية** (Ontologisme): مذهب فلسفي يزعم أصحابه ان الانسان يعايش موضوع تصوّراته في الله، مباشرة وبدون واسطة. ويطلق عليه العرب احياناً لفظة الشهودية نسبة الى شهود، والشهود عندهم هو رواية الحق بالحق.

٥٦ ـ **مذهب التقليدية** (Traditionalisme): ويسمّى ايضاً المذهب السلفي الذي ينتمي اليه لويس دي

بونالد، وجوزف دي مستر، والذي ظهر في القرن الثامن عشر معارضاً للمذهب الفردي. فهو ينكر عليه إن الفرد كائن برأسه، وان الاجتماع وليد اتفاق بين الافراد. ويعارض هذه الدعوى بتوكيد ضرورة الاجتماع وينكر عليه دعواه ان العقل الفرد يبلغ الى الحق بقوّته الذاتية، ويعارضه بارجاع العلم الانساني الى وحي اول نزلت به من لدن الله الفاظ اللغة والمعاني المقابلة لها فتناقلها السلف.

٥٧ ـ **المتطهرون** (Puritains): شيعة بريسبيتارية نشأت في انكلترا وايقوسيا، ويدّعون أنهم أكثر أمانة من غيرهم لمعنى الكتاب المقدس، وتشدّدهم في موضوع الاخلاق أوقعهم في صلابة مرعبة مضرّة للحياة. وعلى أثر ثورة سنة ١٦٤٨ اضطهدهم آل ستيوارت فهاجر قسم كبير منهم الى أميركا.

٥٨ ـ **التأليهيّة** (Le déisme): نظرة فلسفية قديمة (ارسطو) تعني التأليه المحض، وهي الاعتقاد ان الله خلق الطبيعة ولكنه لا يتدخل في المجرى الذي حدّده لها. ثم تطوّر الى الاعتقاد بامكان الوصول الى الحقيقة بواسطة قوى العقل الطبيعيّة دون الحاجة الى التسليم بالوحي. وقد شاع هذا المعنى في الفلسفة الانكليزية في القرن الثامن

عشر، ويمثل عقيدة الدين الطبيعي. ومنه اللادينيّون القائلون بالألوهية والمنكرون للأديان.

٥٩ ـ **النقدية** (Criticisme): هذا المذهب النقدي صاحبه الفيلسوف الالماني «كانت»، ويريد به الجمع بين التجربة والعقل مصدراً للمعرفة. فالعلم بالشيء مرجعه الى التجربة، لكن الادراك الحيّ لا يستقيم بغير مبادىء اوليَّة بديهيَّة لا تستمد من التجربة بل تقدم في الذهن، سابقة للتجربة.

٦٠ ـ **الهوغونوت** (Huguenots): هم اتباع كالڤان في فرنسا وهي تشويه للكلمة الالمانية أيدجنوسين Eidgenossen ومعناها المتحد بالقسم.

٦١ ـ **الهيغليّة** (Hégélianisme): مذهب الفيلسوف الالماني جورج فردريك هيغل (١٧٧٠ ـ ١٨٣١)، او مذهب الجدل، ويتألف من مراحل ثلاثة: الفرضيَّة ونقيضها والتأليف بينهما Thèse, antithèse, synthèse.

٦٢ ـ **الهرمزيانية** (Hermésianisme): رأي الكنيسة حول موضوع تربية الاولاد بالنسبة الى مذهب أهلهم. وهو القائل بضرورة تربية الطفل على المذهب

الكاثوليكي في الزواج المختلط، وينسب الى أحد الباباوات.

٦٣ ـ **الكوريا الرومانية** (La curie romaine): لقد تمَّ تنظيم هذه المؤسسة منذ اوّل كانون الثاني سنة ١٩٦٨، وهي تشمل مجامع ومحاكم ومكاتب وامانات سرّ. فالمجامع متساوية في الحقوق فيما بينها. وتتألف من أعضاء كرادلة واساقفة يسمّيهم البابا لمدّة خمس سنوات، والاساقفة المقيمون يشتركون في الاجتماعات ويتمتّعون بكامل الحقوق ومنها معالجة أهم القضايا وتحديد الاتجاهات الكبرى (حضورهم ليس ضرورياً في روما إلاّ مرة واحدة في السنة). وعلى رأس كلّ مجمع كردينال مدير ونائب مدير وسكرتير ونائب سكرتير يعيّنهم البابا لمدّة خمس سنوات. يساعدهم مستشارون يسمّيهم البابا لمدّة خمس سنوات ويختارهم من الاساقفة والكهنة والرهبان والعلمانيين حسب طبيعة الاعمال في كل مجمع. وما تزال اللغة اللاتينيّة لغة المجامع الرسمية، انما يمكن استعمال اللغات الحديثة. ومن واجبات الكردينال سكرتير البابا (امين سرّ الدولة البابوية) ان يجمع مدراء المجامع بشكل دوري فيؤلفون مجلساً استشارياً وزارياً.

٦٤ ـ **سكرتاريا البابا:** ومجلس المشورة لشؤون الكنيسة العامة. سكرتارية البابا او امانة سرّ الدولة البابوية ـ انه أرفع تنظيم في الكوريا. يرأسه الكردينال امين سرّ الدولة ويساعده معاون ووكيل. والسكريتارية تحت تصرّف البابا لكل المهام التي يعهد بها إليها. فهي تؤمن العلاقات مع المنظمات الاخرى في الكوريا وعلاقات البابا مع الاساقفة ومع السفراء ومع الحكومات وسفرائها ومع الافراد. يرتبط بها مكتبان للرسائل والوثائق البابوية، ومكتب لجمع المعلومات واقوال الصحف، ومكتب الاستشارات الاجتماعية، ومكتب للاحصاء، ومكتب حكومة الفاتيكان، ومجلس استشاري لقضايا الكنيسة العامة.

٦٥ ـ **المجامع الرومانية:** مجمع الايمان المقدس الذي يسهر على نقاء العقيدة والاخلاق. ومجمع الكنائس الشرقية وهو المسؤول عن جميع القضايا العائدة للأفراد والنظام والطقوس في الكنائس الشرقية المرتبطة بروما. ومجمع الاساقفة ويشمل المكتب الاستشاري لقضايا الكنيسة العامة ومدراء المكاتب والاساقفة وتنظيم الابرشيات، والتعليم المسيحي، والاكليروس.

ومجمع الاسرار المقدسة ويشمل كل ما له علاقة بقبول الاسرار وادارتها والاحتفال بالقربان المقدس وسيامة الكهنة. ومجمع الطقوس، ومجمع الاكليروس، ومجمع الرهبان، والمؤسسات العلمانية، ومجمع الاعداد الكاثوليكي ويهتم بالاكليريكيات والمدارس. ومجمع نشر الايمان ويهتم بنشر الايمان المسيحي بين الأمم.

٦٦ ـ **امانة السرّ والمجالس الاستشارية:** امانة سرّ الوحدة المسيحية ـ امانة سر غير المسيحيين وتشمل قسماً خاصاً بالمسلمين ـ امانة سرّ غير المؤمنين ـ المجلس الاستشاري للعلمانيين ـ البعثة البابوية للعدالة والسلام، وتهتم بمساعدة المظلومين والفقراء في العالم الثالث.

٦٧ ـ **المحاكم:** المحكمة العليا للأختام الرسولية وفيها غرفة استئناف وتمييز، وغرفة ادارية. ومحكة الروتا وتختص بقضايا الزواج. والمحكمة الرسولية وتختص بالقضايا الضميرية.

٦٨ ـ **المكاتب:** مكتب الاختام وهو المكلّف بالبريد وتوزيع الوثائق البابوية ـ المكتب الرسولي ومهمّته المحافظة على ممتلكات الكرسي الرسولي في الفترة الممتدّة بين وفاة البابا

وانتخاب خلف له ـ مكتب تموين الكرسي الرسولي وهو المسؤول عن ادارة املاك الكرسي الرسولي ـ مديريّة المال وهي شبيهة بديوان المحاسبات يرأسها ثلاثة كرادلة. مكتب الاحصاء. مكتب مدير القصر الرسولي وهو المكلّف بادارة الخدمات العامة والاحتفالات في القصر وتنظيم المقابلات.

ملحق ثالث

الألفاظ اليونانية والسريانية المتداولة كنسيّاً

١ ـ **أبدياقون:** يونانية. وهي درجة دون الشمّاسية، وتسمّى درجة الشدياقية.

٢ ـ **أبرشية:** يونانية. وهي ولاية الأسقف الكنسية.

٣ ـ **أرخيدياقون:** يونانية. تعني رئيس الشمامسة، وهي درجة دون درجة الكاهن.

٤ ـ **أسقف:** يونانية. تعني الرقيب والناظر. والاسقف هو رئيس الكهنة الذي يتولّى تدبير الابرشية ويراقب امورها الدينيّة.

٥ ـ **أمولوغيا:** يونانية. تعني الاقرار والاعتراف. وهو كتاب الاعتراف بصحة الايمان والمعتقد يوقّعه البطريرك الجديد قبل تقليده الرتبة، والاسقف قبل سيامته وتوليته درجة الاسقفية.

٦ ـ **أنبا:** يونانية. وتعني الأب. وتطلق خاصة على رئيس الدير. امّا الأقباط فيطلقونها على البطاركة والاساقفة ولكن بادخال لام التعريف عليها.

٧ ـ **أنتيفونا:** يونانية. وهي أبيات صلوات يتلوها الكهنة ويردّدها الشعب بعدهم.

٨ ـ **باعوث:** سريانية وتعني طلبة. وهي أبيات شعرية على اوزان ثلاثة تتلى يومياً في اثناء صلاة الفرض. ولقد عرفها البعض بصلاة الاستسقاء او الاستمطار. ويطلقها نصارى العراق على صوم نينوى وبعض نصارى بلاد الشام على حفلة دينية لبعض اعيادهم.

٩ ـ **برديوط:** يونانية. وتعني نائب الأسقف او كبير الكهنة. وقد يسمّى بالسريانية الساعور وهو الراهب القسّيس الذي يوفده الأسقف في بعض مهام الرعية.

١٠ ـ **بسالطوس:** يونانية. وتعني المرتل. وهي أصغر الدرجات الكنسيّة.

١١ ـ **بطريرك:** يونانية. وتعني رئيس الآباء، وهو رئيس رؤساء الاساقفة.

١٢ ـ **بيت كاز:** سريانية. وتعني مخزناً يراد به عند السريان مجموعة الاناشيد الكنسية.

١٣ ـ **تبرة:** يونانية. بيت من الشعر يتلى في مقدمة كل باعوث.

١٤ ـ **تكشفت:** سريانية. وتعني ابتهال. وهو نوع من الأناشيد السريانية المنثورة وضعها رابولا مطران الرها.

١٥ ـ **ترجام:** سريانية. وتعني خطبة يفسر فيها فصل الانجيل الذي سبقت تلاوته.

١٦ ـ **تسبحة:** سريانية. وتعني التسبيح والتمجيد. وهي صلاة تتلى في صلاة الليل يومياً.

١٧ ـ **جاثليق:** يونانية. وتعني العام الكلّي. وهي رتبة دون البطريرك وفوق الأسقف.

١٨ ـ **حبيس:** سريانية. وهو ناسك حبس نفسه في صومعة تعبّداً لله.

١٩ ـ **حتّام:** سريانية. وتعني خاتمة. وهو بيت من الشعر يتلوه الكاهن في آخر الصلوات والقداس.

٢٠ ـ **حسّاية:** سريانية. وتعني استغفار وغفران. وهي صلاة منثورة مسهبة يُتلى منها في القداس والصلوات وايام الآحاد والاعياد والصيام.

٢١ ـ **خرونيقون:** يونانية. تاريخ يومي تدوّن فيه الاحداث سنة فسنة.

٢٢ ـ **خورابسقوپوس:** يونانية. وتعني اسقف الكورة، ولقد خفّفت فقيل خوري. والمقصود بها اليوم

مقدّم الكهنة عند البعض، وعند البعض الآخر في بلاد الشام الكاهن على الاطلاق.

٢٣ ـ **دبتخا**: يونانية. تعني ذو اللوحين، وهو لوح كانت تسجّل فيه اسماء أئمّة الدين المتوفين والاحياء. وكان يتلى في اثناء القداس في الايام الحافلة، ويعرف عند السريان بسفر الاحياء او الحياة. وقد أهمل بعدئذٍ.

٢٤ ـ **دنح**: سريانية. وتعني الظهور. ويراد بها عيد الغطاس.

٢٥ ـ **ديدسقالية**: يونانية. وتعني دار التعليم. اعطيت لمدرسة الاسكندرية اللاهوتية التي أنشئت سنة ١٨٠ مسيحية، ثم أطلقت اصطلاحاً على مجموعة السنن والرسوم المنسوبة الى الرسل الاطهار وتلامذتهم.

٢٦ ـ **دير**: سريانية. مسكن الرهبان الذين يتعبّدون لله ويتفرّغون للصلاة والتأمل.

٢٧ ـ **ربّان**: سريانية. وتعني الاستاذ. ولقد اريد بها اصطلاحاً الراهب القسيس.

٢٨ ـ **زومار**: سريانية. وتعني ترتيل. وهي آية من مزامير داود النبي يلحق بها جملة منظومة تتلى قبل الانجيل.

٢٩ ـ **سبار**: سريانية. تبشير. يراد بذلك ايام صيام وميلاد السيد المسيح في مدينة الموصل وجوارها، حيث تنشد الادعية بمولده حسب الجسد.

٣٠ ـ **ستيخارا**: يونانية. نوع من الأناشيد البيعيّة وضعها القديس يوحنا فم الذهب.

٣١ ـ **سدر**: سريانية. بكسر السين وتسكين الدال، ومعناها ترتيب، وهو الجزء الثاني من صلاة الحسّاية.

٣٢ ـ **سطيخون**: يونانية. اصلها ستيخون ومعناها بيت شعر، وهي صنف منثور من الاناشيد دبّجه القديس كيرلّوس الأورشليمي.

٣٣ ـ **سوسطاثيقون**: يونانية. كتاب العهد اي تقليد الولاية للاسقف يكتبه البطريرك.

٣٤ ـ **سونترنيس**: يونانية. الاجلاس على كرسي الاسقفية او على العرش البطريركي، وهي حفلة تقام للحبر الجديد عند دخوله الى ابرشيته.

٣٥ ـ **سيامة**: سريانية. تقليد اصحاب الدرجات الكهنوتية والاسقفية حق القيام بوظائفها، وتعني وضع اليد من قبل الاسقف على رأس المرسوم.

٣٦ ـ **شحيم:** سريانية. باسكان الشين ومعناها البسيط، وهو اسم لكتاب فرض الصلوات اليومية التي تكرّر اسبوعياً.

٣٧ ـ **شمّاس:** سريانية. وتعني الخادم. وهو دون القسيس ومعاونه في اثناء القيام بحق العبادة والخدم الكهنوتية.

٣٨ ـ **شملاية:** سريانية. وتعني تكميل واتمام. وهي احدى ستة ادعية يتلوها الشماس في اثناء القداس ذكراً للأحياء والموتى.

٣٩ ـ **شوباح:** سريانية. التسبيح. نوع من الاناشيد المنثورة التي تتلى في اثناء خدمة القربان.

٤٠ ـ **طقس:** يونانية. نظام وترتيب. وفي العرف الكنسي يطلق على شعائر الديانة وحفلاتها.

٤١ ـ **طروفوريون:** يونانية. طروبارية. نوع من الاناشيد النثرية استنبطت في اواسط القرن الخامس مسيحي.

٤٢ ـ **عدّان:** سريانية. وقت، أوان. اهل الشام يستعملونها بهذا المعنى ويراد بها الصلوات التي تقام في نوبات متتابعة فيقال: العدّان الاول والثاني... ويقابلها القومة.

٤٣ ـ **عِقْب:** سريانية. بكسر العين. وتعني نهاية. وهو دعاء يلي دعاء العطر.

٤٤ ـ **عنيان:** سريانية. وتعني جواب. وهي ترتيلة تعاد (ردّة).

٤٥ ـ **غنيز:** سريانية. باسكان الغين والابتداء بالساكن، وتعني خفي، محجوب. وهو نشيد منثور يشابه التكشفت.

٤٦ ـ **فردا:** سريانية. قطعة فصل وهي انشودة صغيرة.

٤٧ ـ **فروميّون:** يونانية. فاتحة مقدسة، يسمّى بها الجزء الاول من صلاة الاستغفار.

٤٨ ـ **فنقيت:** سريانية. وتعني مجلّد والمجموع العام. اسم احد كتب الفرض اي الصلاة على الاطلاق.

٤٩ ـ **قاثسما:** يونانية. واصلها كاثسما، ومعناها مجالس نوع من التراتيل البيعيّة المنثورة.

٥٠ ـ **قال:** سريانية. قول وصوت. وهو ترتيلة منظومة تنشد بلحن خاص من الاول الى الثامن.

٥١ ـ **قانون:** يونانية. قانون، نظام تسبيح بيعي منثور استنبطه اندراوس الكريتي حوالي سنة ٧٠٠ مسيحية، وعمّ استعماله.

٥٢ ـ **قداس:** سريانية. تقدمة القربان الالهي، او

الذبيحة الالهية، او الصلوات التي تتلى على الخبز والخمر لتقديسها.

٥٣ ـ **قس وقسّيس:** سريانية. بفتح القاف. وتعني الشيخ الذي يقلّد خدمة الكهنوت في الكنيسة المسيحية.

٥٤ ـ **كلندار:** يونانية. لائحة الفصول والشهور والايام واعياد السنة.

٥٥ ـ **كوراخ:** سريانية. ترتيلة وجيزة او لحن ينتابه الصفان في البيعة.

٥٦ ـ **كوروزوثا:** سريانية. وتعني مناداة او انذار. وهي نشيد منظوم كان يتلى في الاعياد الحافلة قبل قراءة الانجيل اذا قرأه الاسقف ومن فوقه. ومن هذه اللفظة فعل كرز الذي يستعمله بعض كتبة النصرانية بمعنى بشّر بالدين ونادى به ودعا اليه.

٥٧ ـ **ليتورجيا:** يونانية. الخدمة الجمهورية. وهي مجموع صلوات القداس ويقال لها ايضاً أنافورا وهي لفظ يوناني معناه رفع القربان.

٥٨ ـ **مار:** سريانية. وتعني سيّدي. وتطلق على القديسين والبطاركة والاساقفة.

٥٩ ـ **مدراش:** سريانية. ترتيل، نشيد. وهو شعر يصاغ

على اوزان مختلفة والحان شتّى بلغ عددها الخمسماية. دبّجها القديس افرام السرياني (+ ٣٧٣)، وقد استنبطها برديصان (+ ٢٢٢).

٦٠ ـ **مدبرونوث:** سريانية. وتعني تدبير وسياسة. عنايةالله. ويراد بها هنا ما اقتضته سياسة السيد المسيح بالنسبة الى خلاص البشر.

٦١ ـ **مرميث:** سريانية. تعني اصلاً شيء يرمى به. وهي صلاة وجيزة وقسم من المزامير متفاوت العدد أكثره ١٤ وأقلّه ٤ مزامير.

٦٢ ـ **مسحة:** سريانية. زيت مقدس يدهن به المعتمدون والمرضى.

٦٣ ـ **مطران:** يونانية. اصلها متروبوليت ومعناها رئيس العاصمة. يراد به الاسقف او رئيس الاساقفة المقيم في مدينة كبيرة.

٦٤ ـ **معبران:** سريانية. ضرب من الاناشيد السريانية المنثورة ترتل في تشييع الجنائز.

٦٥ ـ **معذعذان:** سريانية. باسكان الميم. عيد حافل. وهو اسم كتاب يشتمل على الأدعية التي تتلى في حفلات الاعياد الكبرى.

٦٦ ـ **معنيث:** سريانية. اغنية. ترتيلة. وهي نشيد منثور

يجري على الالحان الثمانية. يفتتح بآية من الكتاب المقدس ويقال له باليونانية أكطويخس ومعناه ذات الالحان الثمانية، وربما اراد به القدماء النشيد على الاطلاق.

٦٧ ـ **مفـريـان:** سريانية. وتعني المثمر. وهو اسم لصاحب رتبة كنسية خاصة بالكنيسة السريانية مرادفة للجاثليق، وهو دون البطريرك وفوق الاسقف. وكان كرسيه في تكريت ثم نقل الى دير مار متى فالموصل.

٦٨ ـ **ملفـان:** سريانية. وتعني المعلم والاستاذ. يراد به أحد أئمّة النصرانية وعلمائها. والملفنة تعني الدكتوراه.

٦٩ ـ **مـوربـو:** سريانية. وتعني تعظيم. وهي اللفظة الاولى من نشيد العذراء مريم «تعظم نفسي الرب»، وهو ترتيل منثور يدور على الحان ثمانية ويرنم به يومياً. ويعني ايضاً نشائد التعظيم.

٧٠ ـ **ميـرون:** يونانية. بفتح الميم وكسرها. واصله باليونانية مورون. وهو زيت مقدس ممزوج بالبلسم ومعطر بطيوب. تمسح به الهياكل والمذابح الجديدة، وكذلك يستعمل في سيامة الاساقفة والكهنة.

٧١ ـ **ميمر:** سريانية. مقالة. خطبة. قصيدة.

٧٢ ـ **نـاقـوس:** سريانية. مضراب المسيحيين كانوا يدقّون به لاوقات صلواتهم. وهذا التحديد ينطبق على الناقوس القديم وهو قطعة من خشب صلب او حديد تعلق فتضرب بمطرقة خشب او حديد. وقد استبدل بالجرس النحاسي في ما بعد كما نرى ذلك اليوم.

٧٣ ـ **هيكل:** سريانية. موضع في صدر الكنيسة يصلّي فيه الاكليروس عند تقدمة القربان. وربّما اطلقه بعضهم على بناء الكنيسة كلها او صحنها، وجمعها هياكل.

المراجع

١ ـ من مؤلفات ايريناوس

Irénée de Lyon: Contre les hérésies, livre I. A. Rousseau, L. Doutreleau. Tome I. Introduction, notes justificatives et tables, 1979. Coll. «Sources Chrétiennes», 263.

Irénée de Lyon: Contre les hérésies. Livre I. A. Rousseau, L. Doutreleau, Tome II. Texte et traduction, 1979. Coll. «Sources Chrétiennes», 264.

Irénée de Lyon: Contre les hérésies. Livre III. A. Rousseau, L. Doutreleau. Tome I. Introduction, notes justificatives et tables, 1974. Coll. «Sources Chrétiennes», 210.

Irénée de Lyon: Contre les hérésies. Livre III. A. Rousseau, L. Doutreleau. Tome II. Texte et traduction, 1974. Coll. «Sources Chrétiennes», 211.

Irénée de Lyon: Contre les hérésies. Livre III. F.

Sagnard, 1965. Coll. «Sources Chrétiennes», 34.

Irénée de Lyon: Contre les hérésies. Livre IV. A. Rousseau, B. Hemmerdinger, Ch. Mercier, L. Doutreleau. 2 vol., 1965. Coll. «Sources Chrétiennes», 100.

Irénée de Lyon: Contre les hérésies. Livre V. A. Rousseau, L. Doutreleau, Ch. Mercier. Tome I. Introduction, notes justificatives et tables, 1969. Coll. «Sources Chrétiennes», 152.

Irénée de Lyon: Contre les hérésies. Livre V. A. Rousseau, L. Doutreleau, Ch. Mercier. Tome II. Texte et traduction, 1969. Coll. «Sources Chrétiennes», 153.

Irénée de Lyon: Démonstration de la prédication apostolique. L. Froidevaux. Nouvelle trad. sur l'arménien, 1971. Coll. «Sources Chrétiennes», 62.

٢ ـ بعض ما كتب عن ايريناوس

Bardy, G.: La Théologie de l'Eglise de saint Clément de Rome à saint Irénée. Paris, 1945.

Batiffol, P.: Le gnosticisme, dans le Bulletin de littérature ecclésiastique. Paris, 1907, p. 174 sq.

Batiffol, P.: L'Eglise naissante et le catholicisme, 3ème édit., Paris, 1909.

Batiffol, P.: L'Eucharistie. La présence réelle et la transsubstantiation, 9ème édit., Paris, 1930.

Beaven, J.: An account of the life and writings of S. Irenaeus. Londres, 1841.

Buonaiutti, E.: Il millenarismo d'Ireneo, dans la Rivista storico-critica delle scienze teologiche. Roma, 1906, T. II, pp. 909 - 918.

Chaine, J.: Le Christ rédempteur d'après saint Irénée. Le Puy, 1919.

Chantre, A.: Exposition des opinions d'Irénée, Tertullien, Clément d'Alexandrie et Origène sur l'oeuvre rédemptrice de Jésus-Christ. Genève, 1860.

Courdaveaux, V.: Saint Irénée, dans la Revue de l'histoire des religions. Paris 1890, t. XXI, p. 172 sq.

D'Alès, A.: La doctrine de la récapitulation en saint Irénée, dans les Recherches de science religieuse. Paris, 1916, t. VI, p. 185 sq.

Daniélou, J.: La charrue, symbole de la croix (Irénée, Adv. Haer., 4, 34, 4): RSR 42 (1954), p. 193 sq.

De Faye, E.: Gnostiques et gnosticisme. Etude critique des documents du gnosticisme chrétien au IIe et IIIe siècles. Paris, 1913.

Dufourcq, A.: Saint Irénée. Coll «Les Saints», 2ème édition. Paris, 1904.

Forget: Le témoignage de saint Irénée en faveur de la primauté romaine. ETL (1928), pp. 437 - 461.

Forni, R.: Problemi della tradizione. Ireneo di Lione. Milano, 1939.

Freppel, Mgr.: Saint Irénée. Paris, 1861.

Freppel, Mgr.: Saint Irénée et la primauté du pape. Rome, 1870.

Froidevaux, L. M.: Une difficulté du texte de saint Irénée (Adv. Haer. IV, 14): ROChr 8 (1932), pp. 441 - 443.

Froidevaux, L. M.: Sur trois passages de la «Démonstration» de saint Irénée (89, 33, 31): RSR 39 (1951), pp. 368 - 380.

Galtier, P.: La rédemption et les droits du démon dans saint Irénée, dans les Recherches de science religieuse. Paris, 1911, t. II, p. 5 sq.

Galtier, P.: L'évêque docteur: saint Irénée de Lyon, dans les Etudes. Paris, t. 136, pp. 213 - 214.

Gouilloud, A.: Saint Irénée et son temps. Lyon, 1876.

Grant, R. M.: Irenaeus and Hellenistic Culture: HThR 42 (1949), pp. 41 - 51.

Hitchcock, F. R. M.: The Doctrine of the Holy Communion in Irenaeus: ChQ 129 (1939 - 1940), pp. 206 - 225.

Holstein, H.: L'exhomologèse dans l'Adversus haereses de saint Irénée: RSR 35 (1948), pp. 282 - 288.

Houssiau, A.: L'exégèse de Matthieu, XI, 27 b, selon saint Irénée: ETL 29 (1953), pp. 328 - 354.

Jugie, M.: La forme du sacrement de l'eucharistie d'après saint Irénée: Mémorial M. Chaine. Lyon, 1950, pp. 223 - 233.

Labriolle, P. de: La crise montaniste. Paris, 1913, pp. 230 - 244.

Laguier, L.: La résurrection de la chair dans saint Irénée, dans la Revue du clergé français. Paris, 1905, t. XLIII, pp. 225 - 236.

Lebreton, J.: La connaissance de Dieu chez saint Irénée: RSR 16 (1926), pp. 385 - 406.

Lévêque, L.: Le martyre de saint Irénée, dans La Science Catholique. Paris, 1892 - 1893, t. VII, pp. 499 - 800.

Martin, J. B.: Conciles et bullaires du diocèse de Lyon, 1905.

Olivar, A. M.: Un manuscrito desconocido de San Ireneo Adversus Haereses: Scriptorium 3 (1949), pp. 11 - 25.

Rambouillet: Saint Irénée et l'infaillibilité. Paris, 1870.

Reilly, W. S.: L'inscription de L'Ancien Testament chez saint Irénée dans la Revue biblique, 1917, p. 499 sq.

Reynders, B.: La polémique de saint Irénée: RTAM 7 (1935), pp. 5 - 27.

Riguet, A.: Les principales dates de la vie de saint Irénée. Sa théologie mariale, dans les Annales de philosophie chrétienne. Paris, 1905, VIe série, T. VI, pp. 111 - 125.

Rivière, J.: La doctrine de saint Irénée sur le rôle du démon dans la rédemption, dans le Bulletin d'ancienne littérature et d'archéologie chrétiennes. Paris, 1911, T. I, pp. 178, 188.

Salvatorelli, L: La principalità della Chiesa romana in Ireneo ed in Cipriano. Rome, 1910.

Sagnard, F. M.: La gnose valentinienne et le témoignage de saint Irénée. Paris, 1947.

Simonin, H. D.: A propos d'un texte eucharistique de saint Irénée: RSPT 23 (1934), pp. 281 - 292.

Terrien, J. - B.: La mère de Dieu et la mère des hommes d'après les Pères et la théologie. Paris, 1900.

Vancandard, E.: L'indistinction des Eglises de Lyon et de Vienne au temps de la persécution de Marc-Aurèle (177), dans le Bulletin d'ancienne littérature et d'archéologie chrétiennes, T. III. Paris, 1912, pp. 128 - 131.

Vernet, F.: Saint Irénée, évêque de Lyon: DTC, T. 7, 2ème partie. Paris, 1923, Col. 2394 - 2533.

الفهرس

صفحة

للمؤلف ٤

الاهداء ٥

ايريناوس
اسقف مدينة ليون

مقدمة ٩

القسم الاول: ايريناوس الاسقف والراعي والمدافع عن الايمان ١٣

١ ـ ايريناوس الاسقف الراعي ١٥

٢ ـ ايريناوس المدافع عن الايمان ٢٢

أ ـ ضد الهرطقات ٢٣

ب ـ توضيح التعليم الرسولي ٢٧

ج ـ المؤلفات المفقودة ٢٨

القسم الثاني: ايريناوس اللاهوتي ٣١

١ ـ الثالوث الأقدس في لاهوت ايريناوس ٣٣

٢ ـ الكلمة المتجسّد والفادي في لاهوت ايريناوس ٤٣

أ ـ طبيعة المسيح الانسانية ٤٤

ب ـ طبيعة المسيح الالهية ٤٧

ج ـ اتحاد الطبيعة الالهية
والطبيعة الانسانية في المسيح ٥٠
د ـ المسيح الفادي ٥٢
٣ ـ العذراء مريم في لاهوت ايريناوس ٦٤
أ ـ مريم ام الله ٦٧
ب ـ مريم ام البشرية ٦٨
٤ ـ الكنيسة في لاهوت ايريناوس ٧٢
أ ـ قداسة الكنيسة ٧٣
ب ـ وحدة الكنيسة ٧٤
ج ـ جامعية الكنيسة ٧٥
د ـ رسولية الكنيسة ٧٦
هـ ـ تراتبيَّة الكنيسة ٧٧
و ـ اولويّة كنيسة روما ٨٠
ز ـ الكنيسة والدولة ٨٣
٥ ـ النعمة في لاهوت ايريناوس ٨٦
٦ ـ الايمان والحب في لاهوت
ايريناوس ٩٠
أ ـ الايمان ٩٠
ب ـ الحب ٩٢
٧ ـ الاسرار في لاهوت ايريناوس ٩٤
أ ـ سرّ العماد ٩٤
ب ـ سرّ التثبيت ٩٥
ج ـ سرّ الافخارستيا ٩٦

د ـ سرّ التوبة ٩٩
هـ ـ سرّ مسحة المرضى ١٠١
و ـ سرّ الزواج ١٠٢
ز ـ سرّ الكهنوت ١٠٣
٨ ـ الكتاب المقدس في لاهوت
ايريناوس ١٠٤
أ ـ قانونية الكتب المقدسة ١٠٦
ب ـ تفسير الكتب المقدسة ١٠٧
ج ـ الكتاب المقدس وقانون
الايمان ١١١
٩ ـ الانسان في لاهوت ايريناوس ١١٣
١٠ ـ الحياة بعد الموت في لاهوت
ايريناوس ١١٦
أ ـ خلود النفس ١١٦
ب ـ الدينونة الخاصة ١١٧
ج ـ حالة نفوس الابرار قبل
القيامة العامة..... ١١٨
د ـ حالة نفوس الخطأة قبل
القيامة العامة ١١٩
هـ ـ مجيء المسيح الثاني ١٢٠
و ـ قيامة الموتى ١٢١
ز ـ مملكة المسيح الارضية ١٢٣
ح ـ الدينونة العامة ١٢٦

القسم الثالث: ايريناوس: دوره وتأثيره في
تاريخ اللاهوت المسيحي ١٢٩
١ ـ دور ايريناوس في تاريخ اللاهوت
المسيحي ١٣١
أ ـ المراجع اليونانية ١٣٢
ب ـ المراجع اليهودية ١٣٣
ج ـ المراجع الغنوصية ١٣٥
د ـ المراجع المسيحية ١٣٦
٢ ـ تأثير ايريناوس في تاريخ اللاهوت
المسيحي ١٤٠
الخلاصة ١٤٥
القسم الرابع: مختارات من مؤلفات ايريناوس ١٤٩
١ ـ وحدانية الله ١٥١
٢ ـ الخلاص واحد كما الله واحد ١٥١
٣ ـ جديد التجسّد هو الله نفسه ١٥٢
٤ ـ التجسّد جعل الانسان شبيهاً
بالمسيح وكريماً في عينيّ الله ١٥٣
٥ ـ المسيح جدّد كلّ شيء في شخصه ١٥٣
٦ ـ مريم المطيعة كفّرت عن حواء
العاصية ١٥٤
٧ ـ الافخارستيا عربون القيامة ١٥٥
٨ ـ ايمان الكنيسة الواحد ١٥٧
٩ ـ ايمان واحد وتقليد واحد ١٥٨

١٠ ـ الجهل مع محبة الله أفضل من
العلم بعيداً عنه ١٥٩
القسم الخامس: ملحق ١٦١
١ ـ **ملحق اول:** المجامع المسكونية ١٦٣
٢ ـ **ملحق ثان:** معجم الكلمات ١٦٧
٣ ـ **ملحق ثالث:** الالفاظ اليونانية
والسريانية المتداولة كنسياً ١٨٩
المراجع ٢٠١

الاب جورج رحمه

راهب انطوني ماروني، ولد في دير الأحمر ١١ شباط ١٩٤٠.
مجاز في اللاهوت.
دكتور دولة في الفلسفة.
استاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية.
استاذ في معهد الحكمة العالي للحقوق.
مدير المركز الكاثوليكي للاعلام ١٩٧٨ ـ ١٩٨٤.
مدبّر عام الرهبانية الانطونية ١٩٨١ ـ ١٩٨٧.
مدير كلية التربية في الجامعة اللبنانية، الفرع الثاني، ١٩٨٦ ـ ١٩٩١.
امين عام مساعد للمجلس العالمي للتعاون الاسلامي ـ المسيحي ١٩٨٥ ـ ١٩٨٨.
عضو جمعية تيار دي شاردن العالمية.
عضو الاتحاد الكاثوليكي العالمي للصحافة.
عضو اللجنة العليا لرابطات الاتحاد الوطني اللبناني.
عضو اتحاد الصحافة اللبنانية.
عضو أكاديميا الفكر اللبناني.
عضو شرف في الجمعية اللبنانية للصحة العامة.

٩٧١
٥٠٤

مؤسّس ورئيس رابطة العائلات اللبنانية.
كاهن رعية السيدة ـ المرداشه ١٩٦٩ ـ ١٩٧٢.
كاهن رعية مار روكز ـ حوش حالا ١٩٧٢ ـ ١٩٧٥.
كاهن رعية مار منصور ـ النقاش ١٩٧٥ ـ ١٩٩١.
اشترك وحاضر في عدّة مؤتمرات عالمية، فلسفية ولاهوتية ووطنيّة، ابتداءً من سنة ١٩٧٢.

مطبعة الحرّية
شارع المطران متري ـ خلف ناصيف بجانب ـ الاشرفية
تلفون ٣٢٠٤٤٠ بيروت ـ لبنان

٢١٦